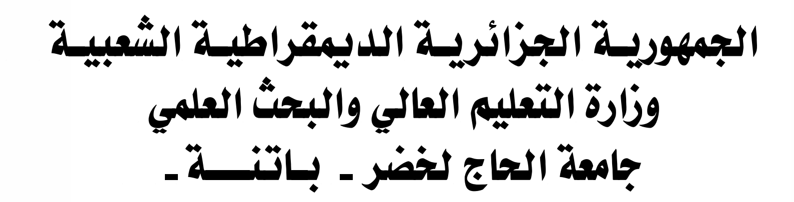

الجمهوريـة الجزائريـة الديمقراطيـة الشعبيـة
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر ـ بـاتنـــة ـ

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ وعلم الآثـــار

بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى غاية انتقال الفاطميين إلى مصر

21 ـ 362 هـ / 642ـ 972 م

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ
تخصص : التاريخ الإسلامي

إعداد الطالـبة:
صورية مديازة

إشراف الأستاذ الدكتور:
مسعــود مزهــودي

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الدرجة العلمية	الجـامعـة الأصلية	الصفــة
د. رشيــد باقـــة	أستاذ محاضر	جامعة الحاج لخضر ـ بـاتنـــــة	رئيســا
أ.د. مسعـود مزهـودي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الحاج لخضر ـ بـاتنـــــة	مشرفا ومقررا
د. كمـال بـن مـارس	أستاذ محاضر	جامعة الحاج لخضر ـ بـاتنـــــة	عضوا مناقشا
أ.د. إسماعيـل سـامعي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر ـ قسنطينة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1430 – 1431 هـ /2009 – 2010 م

قال تعالى:

﴿ لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنَ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنَ خَلْفِهِ

يَحْفَظُونَــهُ مِنَ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

لاَ يُغَيرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

وَإِذا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سَوَءًا

فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنَ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾

سورة الرعد الآية: 11



شكـر و عرفـــــان

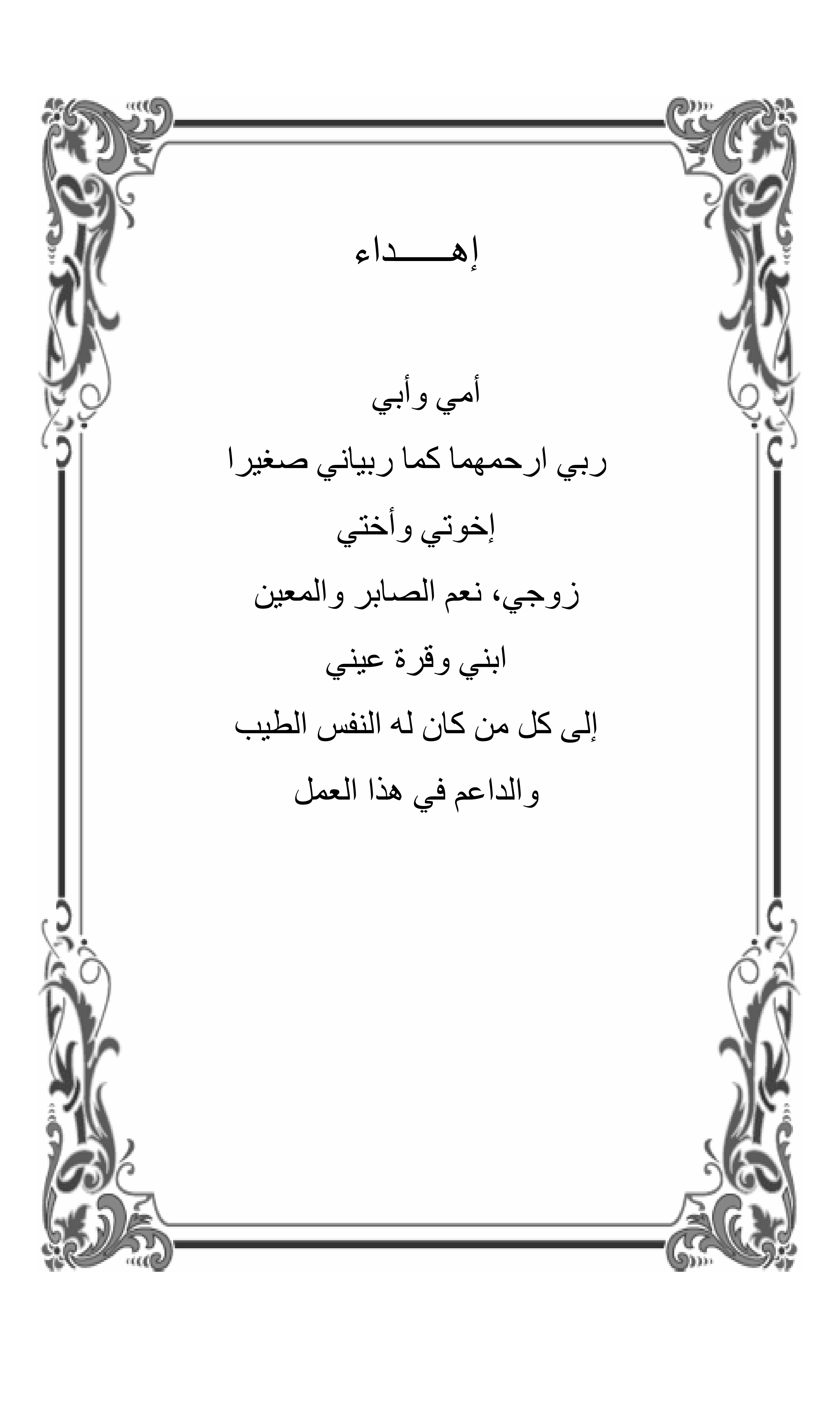
وفاءا، تقديرا، واحتراما

لسراج أضاء بنوره درب كل طالب علم

إلى أستاذي الأستاذ الدكتور:**مسعود مزهـودي**

أتقدم بالشكر الجزيل على النصح، التوجيه، التشجيع والتحفيز، الاحترام والتقدير.

صورية



إهـــــداء

أمي وأبي

ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا

إخوتي وأختي

زوجي، نعم الصابر والمعين

ابني وقرة عيني

إلى كل من كان له النفس الطيب

والداعم في هذا العمل

خطة البحث

خطة البحث

مقدمة

الفصل الأول: بلاد الزاب قبيل الفتح الإسلامي

المبحث الأول: المصطلح الجغرافي

المبحث الثاني: عناصر السكان

المبحث الثالث الحياة السياسية والإدارية

المبحث الرابع: : الأوضاع الاقتصادية

المبحث الخامس: الحياة الاجتماعية

الفصل الثاني: بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى نشوء الدول المستقلة

المبحث الأول: مراحل الفتح الإسلامي لبلاد الزاب

المبحث الثاني: بلاد الزاب في عصر الولاة

المبحث الثالث: بلاد الزاب في عصر الدول المستقلة

الفصل الثالث: بلاد الزاب في عهد الدولة الفاطمية

المبحث الأول: موقف بلاد الزاب من الدعوة الشيعية

المبحث الثاني: دور بلاد الزاب في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد

المبحث الثالث: الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية لثورة أبي يزيد

الفصل الرابع: الحياة الاقتصادية في بلاد الزاب

المبحث الأول: موقع بلاد الزاب وأهميته الاقتصادية

المبحث الثاني: الزراعة والصناعة

المبحث الثالث: التجارة

الفصل الخامس: الحياة الاجتماعية والثقافية لبلاد الزاب

المبحث الأول: طبقات المجتمع

المبحث الثاني: العادات والتقاليد

المبحث الثالث: عوامل ازدهار الحياة العلمية في بلاد الزاب

الخاتمة.

فهارس عامة

مقدمة

تتجه الدراسات التاريخية الحديثة نحو التركيز على الجوانب الاقتصادية والاجتماعيــة والثقافية للدول والمجتمعات، مبتعدة بذلك عن السياسية منها بعد أن استوفت – ولو بصورة ما – حقها في معظم الأحيان، ولكنها تلاقي في المقابل صعوبات بسبب ضعف اهتمام مـــن المؤرخين المتقدمين بهذه الجوانب، وخاصة إذا تعلق الأمر بمناطق لا يزال تاريخها الـــسياسي مغمورا، يحتاج إلى كبير عناية لكونه داخلا في نطاق المستثنى من البحث والدراســة وهــو أدعى إلى الاهتمام والرعاية، فالغائب من التاريخ هو حلقات مفقودة يحاول الباحث وصـــل سلسلته بتجميع ما أمكنه منها.

ويعد تاريخ بلاد الزاب من الموضوعات المهمة التي لم تحظ بدراسة علمية أكاديميــة، إذا تم استثناء بعض المقالات للدكتور موسى لقبال والتي تعد كل منها محاولة لإنارة الـــضوء حول جانب معين، وذلك بالرغم من أن هذه المنطقة ساهمت بقسط كبير في حركية التاريخ المغربي في العصر الوسيط، ولا توجد هناك مبالغة إذا قلنا بأن تاريخ بلاد الزاب يـــدخل في إطار ما يسمى بالتاريخ المنسي.

ومن الإشكاليات الأساسية لهذا البحث تحديد المصطلح الجغرافي ذلك أن هناك خلافات حادة بين الرحالة والجغرافيين في تحديد حدود بلاد الزاب، حتى أنه لمن الصعب أن يتم وضع خريطة دقيقة لبلاد الزاب في العصر الذي نتحدث عنه، وذلك راجع إلى التباين والاختلاف بين الجغرافيين القدامى حول المدن التي تدخل في نطاق الزاب.

هذا بالإضافة إلى مسألة القبائل والبطون والأفخاذ التي اتخذت بلاد الزاب موطنـــا لهـــا طيلة العصر موضوع الدراسة، وموقفها الإيجابي والسلبي من المد الإسلامي، ثم ماذا عن دور بلاد الزاب في الحركات والثورات الخارجية، والبحث في الأثر الاجتماعي والثقافي للوافدين الجدد، ودور التقارب والتشابه في العادات والتقاليد بين العرب والبربر في تـــسهيل عمليــة الاندماج ضمن منظومة اجتماعية جديدة.

ومن جانب آخر الدور الذي لعبته البلاد في الحياة الاقتصادية وسيطرتها على الطـــرق التجارية وإضافاتها في إثراء الحضارة العربية الإسلامية.

ولمعالجة هذه الإشكاليات سيتم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي والنقـــدي المقـــارن كلما دعت الضرورة التاريخية وذلك من خلال تقسيم البحث إلى خمسة فصول.

تناول **الفصل الأول** بلاد الزاب قبيل الفتح الإسلامي وذلك لمعرفة الأجواء العامة التي سيقدم فيها المسلمون، وقد تمت معالجة في البداية مسألة المصطلح الجغرافي، فهـــو القاعـــدة الأساسية التي إنبنى عليها البحث، وبعدها تم التطرق للتركيبة السكانية والحيـــاة الـــسياسية والإدارية فالأوضاع الاقتصادية والحياة الاجتماعية التي كان يحياها سكان بلاد الزاب.

وأما **الفصل الثاني** فتناول بلاد الزاب في الفترة الممتدة بين الفتح الإسلامي ونـــشوء الدول المستقلة، فتم عرض مراحل فتح المسلمين للبلاد فانتقال المنطقة لعهد الولاة وبعـــدها نشوء الدول المستقلة.

وأما **الفصل الثالث** فقد خصص لبلاد الزاب في عهد الدولة الفاطمية، فتطرقنا لموقف الزاب من الدعوة الشيعية ثم دورها في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، وتناولنا الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة على بلاد الزاب.

وأما **الفصل الرابع** فتمت معالجة الحياة الاقتصادية من خلال البحث في أهمية موقعها الاقتصادية والتحدث عن النشاط الاقتصادي المتمثل في الزراعة والصناعة والتجارة.

وجاء **الفصل الخامس** كنتاج للتفاعلات السياسية والاقتصادية التي انعكست علـــى الحياة الاجتماعية والثقافية لبلاد الزاب، من خلال طبقات المجتمع الزابي والعادات والتقاليـــد في ظل الحياة الإسلامية، ثم عوامل ازدهار الحياة العلمية.

وأما عن الصعوبات التي واجهة البحث فقد تمثلت في نقص المـــادة العلميـــة عنـــد المؤرخين، والذين تناولوا الموضوع في غالب الأحيان بشكل عرضي أو عـــابر وفي إطـــار الحديث عن مناطق وأحداث أخرى.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من أعانني في إتمام هذا البحث، وأخص بالذكر أستاذي الأستاذ الدكتور مسعود مزهودي.

المصادر والمراجع عرض وتحليل:

المصادر:

المصادر التاريخية:

- " فتوح مصر والمغرب " لابن عبد الحكم (ت257هـ/870م)، يعد هذا المصدر قريبا من فترة الفتوح، ورغم كونه مشرقيا إلا أنه تحدث عن فتح بلاد المغـــرب عمومـــا بـــشكل مفصل.
- " افتتاح الدعوة " للقاضي النعمان (363هـ/973م)، يمكن عد القاضي المـــؤرخ الأول للدولة الفاطمية في بلاد المغرب، وقد تتبع كتاب افتتاح الدعوة نشأة الدولة وحتى نهايـــة خلافة عبيد الله، وكان الاعتماد عليه بشكل أساسي في الفصل الثالث.
- "المجالس والمسايرات "، يضج هذا المصدر بالحياة الاجتماعية في الدولة الفاطمية وخاصـــة في عهد كل من المنصور والمعز.
- "تاريخ إفريقية والمغرب" للرقيق القيرواني (ت بعد 417هـ/1026م)، حوا هذا المـــصدر معلومات قيمة عن فترة الفتوح وعصر الولاة.
- " الكامل في التاريخ " لابن الأثير (ت630هـ/1232م)، رغم أن المصدر مشرقي إلا أنـــه اهتم كثيرا بتاريخ بلاد المغرب عموما، وتمت الاستعانة به في أغلب فصول البحث.
- "البيان المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب" لابن عذارى (ت بعد 721هـ/1321م)، يعد المصدر الثاني بعد ابن خلدون من حيث الأهمية، وقد استفادت منه الدراسة في الفـــصل الثاني، وخاصة في الفصل الثالث فيما يتعلق بالمعلومات حول انتشار المـــذهب الـــشيعي وثورة أبي يزيد.
- "كتاب العبر" لابن خلدون (ت 808هـ/1405م)، يعتبر تاريخ ابن خلدون موســـوعة تاريخية شاملة للباحث في تاريخ المغرب، وقد أفاد البحث في تحديد مواقع القبائل في بلاد الزاب وبعض الأحداث السياسية.

- "عيون الأخبار وفنون الآثار" للداعي إدريس عماد الدين القرشي (ت 872هـــ/1467م)، اعتمدنا على الجزء الخاص بتاريخ الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب ومصر، وقـــد ذكـــر تفاصيل

دقيقة عن ثورة أبي يزيد لم تتوفر في باقي المصادر، كما ضم وثائق هامـــة كخطـــب الخلفاء التي أوردها كاملة.

كتب الرحلة والجغرافيا:

- "صورة الأرض" لابن حوقل النصيبي (ت367هــ/977م)، ما يميز صاحبه أنه عـــاش في فترة الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، وقد أفادنا كثيرا في دراسة الحيـــاة الاقتـــصادية في العصر الفاطمي حين أتى بمعلومات دقيقة عن التجارة والمحاصيل الزراعية.
- "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" للبكري (ت 487هــ/1094م)، يعتبر من المصادر الجغرافية الهامة، فقد كان اهتمامه دقيقا بوصف الطرق التجارية والأســـواق والحركـــة التجارية والسلع الصادرة والواردة والأسعار والمكاييل والموازين، ووصف المدن المغربيـــة عموما وصفا دقيقا، وقد كان دعامة لغالبية الفصول وخاصة الناحية الاقتصادية.
- "الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري (ت 727هــ/1326م)، بالرغم من أنه متـــأخر عن فترة الدراسة إلا أنه جمع المعلومات من أغلب المصادر الجغرافية المتقدمة، ولذلك فقد كان ذا فائدة كبيرة في المجال الاقتصادي.

وعلى العموم فقد كانت كل المصادر الجغرافية المستعملة في هذه الدراسة ذات قيمـــة وفائدة في تحديد المصطلح الجغرافي وإمدادنا بالمعلومات عن الأوضاع الاقتـــصادية وحـــتى السياسية منها.

المراجع:

لم يتوفر لدي ولو مرجع واحد يتحدث عن تاريخ بلاد الزاب في هذه الفترة، ولذلك فإن أغلب المراجع المستعملة كان الهدف منها هو الاستئناس بآراء الباحثين في مسائل وقضايا قريبة من واقع بلاد الزاب، من خلال تحليلهم للأحداث التي كانت تجري في ولاية إفريقية، مع إشارات طفيفة لبلاد الزاب حين يتعلق الحدث بشكل مباشر بها.

ورغم ذلك فإننا نستثني مقالين للباحث موسى لقبال الأول بعنوان "طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصور الوسطى"، والثاني "الحلف بين أهـــل الـــسنة والنكاريـــة في القـــرن 4هـــ/10م وأثره في تطور الأوضاع في مدن إفريقية والزاب والحضنة والأوراس" ويتحـــدث عن ثورة أبي يزيد.

الفصل الأول

بلاد الزاب قبيل الفتح الإسلامي

المبحث الأول: المصطلح الجغرافي

المبحث الثاني: عناصر السكان

المبحث الثالث: الحياة السياسية والإدارية

المبحث الرابع: الأوضاع الاقتصادية

المبحث الخامس: الحياة الاجتماعية

المبحث الأول: المصطلح الجغرافي.

إن الغاية من البحث وسط مجموعة من المصطلحات المتعـددة والمتباينـة، وحـول أشخاص وأحداث تربطهم علاقات مختلفة، هو الوصول إلى أقرب تحليل مقبول من الناحية الموضوعية لما وقع في الزمن الماضي، وذلك يتم إنما من خلال تفسير الملابسات المختلفة التي صاحبت التطورات التاريخية.

وهذا التعليل لا يقف عند عتبة ما قد مضى، بل يهدف بالأساس إلى قـراءة حاضـر شاخص بأسئلة كثيرة تلح في طلبها لتفسيرات تشرح بعضا مما حدث وتأثيراته في واقع يعج بتراكمات سياسية واجتماعية،تبدو إما غير معللة أو تنسب لغير مكانها وزمانها الحقيقـيين، مع محاولة إعطاء رؤية إستشرافية للمستقبل على أساس ما تم التوصل إليه.

وبناءا على هذه الرؤية تحل جملة من هذه التساؤلات وتلح عن بلاد الزاب في المغـرب الأوسط، تتصدرها جغرافية المنطقة وما يحيط بها من جوانب مختلفة، ولكي يتم البحث فيها بشكل يسمح قدر الإمكان بالتدقيق في كل نقطة، تم تقسيمها بـشكل تسلـسلي بـدءا بدلالات المصطلح ذاته والذي ينقسم إلى جانبين لغوي واصطلاحي.

وعلى اعتبار أن التسمية لم تقتصر على جهة واحدة فإن استجلاء المعـنى اللغـوي ثم ربطه بالمناطق التي اصطلح عليها، وعلاقة الاسم بها وصولا إلى أصلها سيحدد مسار البحث بشكل أدق. فمن الناحية اللغوية ترد مجموعة من التعاريف عند أهل اللغة منها:

ما هو وارد عند ابن منظور إذ يقول " زاب" زأب القربة يزأبها زابا، وأزدأبها : حملها ثم أقبل بها سريعا، والازدئاب الاحتمال وكل ما حملته بمرة، شبه الاحتضان، فقـد زأبتـه، وزأب الرجل وازدأب، إذا حمل ما يطيق وأسرع في المشي، قال: وازدأب القربـة ثم شمـر، وزأبة القربة و زعبتها، وهو حملها محتضنا، والزأب أن تزأب شيئا فتحمله بمـرة واحـدة، وزأب الرجل إذا شرب شربا شديدا، وزأب يحمله جره[1].

1- أنظر لسان العرب، دار إحياء التراث ، العربي دار صادر، (د، ط) ، بيروت، لبنان، (د ت) ، مادة زأب، مج1، ص 443 – 444.

وزأى: إذا تكبر، زبى: الزبية التي لا يعلوها الماء، جمع الزبى، والزبية: حفرة يتزبى فيهــا الرجل للصيد، وتحفر للذئب فيصطاد فيها، حفيرة يشتوى فيها ويختبز، وزبى اللحم وغيره – طرحه[1].

وأما الفيروز أبادي فنجد لديه، زأب القربة: حملها ثم أقبل بها سريعا إزدأبها، وشرب شربا شديدا والإبل ساقها، الزآنب القوارير، وعام أزب مخصب[2].

ويقول الحموي: الزاب بعد الألف باء موحدة، إن جعلناه عربيا أو حكمنــا عليــه بحكمه، زاب الشيء إذا جرى، و زاب يزوب إذا انسل هربا[3].

إن المتأمل للتعاريف السابقة، يميز ثلاث أمور أساسية هي الماء، السرعة، والحفرة، أي مكان يتدفق منه الماء بسرعة، ومن الطبيعي أن يكون مرتفعا ليصبح تدفق المــاء وســيلانه سريعا، فزاب إذا تكبر يمكن الاستنتاج منها العلو والارتفاع، والحفيرة هي المنبع والازدئاب الاحتمال ، والسيل عادة يكون سريعا فيحتمل كل شيء في طريقه، إذا فالزاب هو المكــان المرتفع الذي يسيل منه الماء، وقد يكون ربوة.

ويحيل هذا التدقيق اللغوي إلى سؤال عن أصل الكلمة الذي نجد لــه إشــارة لــدى الحموي حين يجعله عربيا أو يحكم عليه بحكمه، وهذا يفتح الباب أمام احتمــال أعجميــة الكلمة، وما قد يعزز هذا الاتجاه الاختلاف بين الجغرافيين العرب في تحديد جذور تــسمية زوابي العراق.

فابن خرداذبة يعطي التسمية بالفارسية ثم ينقلها إلى العربية، "كورة استان به ذيومــا سفان" أي الزوابي ثلاثة طساسيج – نواحي –، طسوج الزاب الأعلى، الــزاب الأوســط، الزاب الأسفل[4].

1- ابن منظور، المصدر السابق، مادة زبي، مج 14، ص 353.
2- أنظر القاموس المحيط، دار العلم للجميع، (د، ط)، بيروت، لبنان، (د ت)، مادة زأب، ج1، ص 77.
3- أنظر معجم البلدان، تح، فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1410 هـ/1990م،ج3، ص 138.
4- أنظر، **المسالك والممالك**، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه، محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي،ط1، بيروت، لبنان، 1408هـ/ 1988م، ص 20.

وينسبه الحموي إلى ملك فارسي ينعته بزاب بن توركان بن منوشهر بن إيرج بن أفريدون ونسب إليه حفر أنهر العراق التي أخذت تسميتها من اسمه[1]، كما نجد اسما آخر في أحد المراجع الحديثة هو زاب بن طوقان وقد يكون تحريفا لزاب بن توركان، ويورد أيضا الاسم القديم للزاب الأعلى - على حد قوله – هوليكوس أو زاباتوس أو زابا أو زابيس[2]،ما يجعل احتمال فارسية المصطلح واردا – بشكل ما – في المشرق على الأقل.

وإذا كانت صورة زاب المشرق قد اتضحت، فهل هناك علاقة ما تربطه بزاب المغرب؟ ذلك أن الهدف الأساس هو بيان أن المصطلح لا يقتصر على منطقة واحدة هذا من جانب، وجمع أكبر قدر ممكن من نقاط التقارب التي ستعين على إيجاد أصل ومقصد الزاب عامة، وجذورها في بلاد المغرب الأوسط في المرحلة اللاحقة.

ومن هذا المنطلق تجدر الإشارة إلى أن مساحة جغرافية ليست بالصغيرة في المغرب الأقصى يطلق عليها أيضا الزاب، واستنادا إلى الحموي الواصف إياها بـ " والزاب أيضا كورة عظيمة ونهر جرار بأرض المغرب على البر الأعظم عليه بلاد واسعة وقرى متواطئة بين تلمسان وسجلماسة[3].

وبهذا المنحى يبقى زاب المغرب الأوسط، لنجد جملة من الإشكاليات التي لا تمكن المصادر المتوفرة من الإجابة عليها بشكل دقيق ومحدد، وفي المقابل توفر إحدى الدراسات الحديثة ما يمكن اعتباره إعانة على محاولة الوصول إلى المبتغى، والتي يذكر صاحبها أن مسيلة هي ما كان يطلق عليها الزاب، وبشكل أدق زاب جستنيان Zab Justinienne ، والظاهر أنه تمت إعادة بناءها من قبل البيزنطيين، كما ذكر الباحث منطقة أخرى تدعى زابا وهي موريطانيا السطايفية[4].

1- أنظر المصدر السابق، ج3، ص 138.
2-بطرس البستاني، **دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب**، دار المعرفة، (د، ط)، بيروت، لبنان، (د، س، ط)، مج9، مادة زاب، ص 149.
3- أنظر المصدر السابق، ج3، ص 139، انظر أيضا البستاني، المرجع السابق، مج9، مادة زاب، ص150.
4- بالإضافة إلى حمل المسيلة لأسماء أخرى قبل ذلك، أنظر تفاصيل أكثر،
POULLES EVIFIKATEUR, RUINES BCHILGA, (ANCIENNE ZABI), Revue Africaine, Journal des travaux de la Société Historique Algérienne, N: 05, office des publication Universitaires, Alger, 1861, p 196- 203

وأيضا زابي مدينة رومانية في إقليم الحضنة، وكانت مقر أسقفية في القـــرن الخـــامس الميلادي وقد سميت بعد الفتح الإسلامي المحمدية أو المسيلة.[1]

وعلى هذا النحو تبرز إشكالية أصل التسمية من جديد، فبالرغم مـــن أن الجغـــرافيين العرب قد نسبوها إلى أصل فارسي إلا أن تواجدها في بلاد المغرب عمومـــا قبـــل الفـــتح يستدعي البحث عن تبرير، فهل للوصف الجغرافي المتشابه علاقة ما بأصل مشترك للاسم؟

وانطلاقا من هذه النقطة وبالعودة إلى التاريخ المشترك بين الفرس والروم في المـــشرق، والذي طبعته أساسا الحروب التي دامت قرونا ، يمكن طرح فكرة التمازج اللغـــوي بمعـــنى انتقال المصطلح إما من الفرس إلى الروم أو العكس،فالتأثيرات الاجتماعية والثقافية –كما هو معروف– لا تعترف بالحدود ولا الحروب.

وعلى كل حال فقد تغيرت أسماء مناطق كثيرة ومختلفة وحـــورت أخـــرى في بـــلاد المغرب عموما، ومنها على وجه التحديد ما يخص بلاد الزاب عندما اختفى اسم نوميـــديا وحل محله الزاب[2] .

وأما فيما يتعلق بالجانب الجغرافي فالضرورة تقتضي المضي في الزمن ، قـــصد محاولـــة رسم صورة واضحة الحدود والمكونات لبلاد الزاب، ذلك أن إشكالية تمدد وتقلص المساحة تبرز بشكل جلي بين الجغرافيين كل حسب الفترة التي عايشها.

فابن خرداذبة(ت272هـــ/885م) في سرده للمناطق الخاضعة لسلطان الأغالبة، يطلـــق وصف المدينة –مدينة الزاب– دون تحديد أو تعيين إن كان المقصد مدينة معينة كطبنة مثلا، أم هي شاملة لبلاد الزاب بشكل كامل أو مدينة المسيلة[3]، وهكذا فإن الأمر يبدو غير واضح إلا أنه يتغير مع اليعقوبي(ت284هـــ/897م).

1- أحمد الشناوي، إبراهيم خورشيد ، عبد الحميد يونس، **دائرة المعارف الإسلامية**، مراجعة محمد مهدي علام، دار المعرفة، (د ط)، بيروت، لبنان، (د ت)، مادة الزاب، مج10،ص319، 321.
2- نريمان عبد الكريم أحمد، **مجتمع إفريقية في عصر الولاة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، (د م ط)،2000م، 104.
3- أنظر المصدر السابق، ص81.

فيتضح أنه ينسب جملة من المدن إلى بلاد الزاب هي، طبنة الواقعة وسط الزاب[1]، وتفصلها عن المسيلة جهة الغرب مرحلتان، وتحتل هذه المدينة مساحة كبيرة محاطة بسور تراب ولها حصن قديم[2]، وباغاية المدينة القديمة[3] القريبة من جبل أوراس ذي العمارة المتصلة[4]، وتيجس التابعة لباغاية ثم ميلة المحصنة بحصنين[5] وتبعد الأخيرة عن سطيف بمرحلة وهي مدينة قديمة عبارة عن حصن[6].

وتتبعها بلزمة[7] وهي الحصن القديم الذي ينطلق منه إلى نقاوس المدينة الصغيرة[8]، ثم مقرة ذات الحصون و أحة الواقعة على جبل، وأخيرا أربة –أذنة[9]– أخر مدن الزاب غربا[10].

وأما ابن حوقل(ت ق4هـ) فيغيب تحديد مدن الزاب لديه، ولكن في المقابل يورد الطرق الواصلة بين مختلف المناطق، الأمر الذي يعين في التعرف على تلك الرابطة منها بين مدن الزاب، فهناك طريق رابطة بين مسيلة وبسكرة مرورا بمقرة وطبنة، وأخرى بين مسيلة إلى أشير وثالثة بين بادس ونفطة، مع الإشارة إلى أن المسافة بين مدينة وأخرى هي في الغالب مرحلة[11].

ونظرا لأن المقدسي(ت388هـ/998م) ذكر أيضا السبل بين المدن فقد تم أخذ ما اشترك فيه مع ابن حوقل، على اعتبار أنهما الأقرب إلى بعضهما زمنيا، كما اشترك أيضا المقدسي مع اليعقوبي في ذكر ثلاث مدن هي، طبنة ومقرة وأذنة، ليضيف مسيلة التي عدها

1- أنظر البلدان، وضع حواشيه، محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1422هـ، 2002م، ص190-191.
2- محمد عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ت إحسان عباس، هيدلبرغ، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص387.
3- اليعقوبي، المصدر السابق، ص190.
4- الحميري، المصدر السابق، ص65.
5- اليعقوبي، المصدر السابق، ص190.
6- الحميري، المصدر السابق، ص318.
7- اليعقوبي، المصدر السابق، ص190.
8- الحميري، المصدر السابق، ص103.
9- أذنة أو باتنة بينها وبين مسيلة اثنا عشر ميلا،أنظر أيضا أبو عبد الله محمد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح وتع، جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ط) ، الجزائر، 1984م، ص41.
10- اليعقوبي، المصدر السابق، ص191.
11- أنظر صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، (د ط)، بيروت لبنان، (د ت)، ص85، 87.

مدينة الزاب ورأس حد إفريقية، ثم بادس[1]، وهي حصنان وتعد مفترق الطـرق إلى بـلاد السودان وطرابلس والقيروان[2].

وبعدها ينتقل إلى طولقة[3] التي عدها من الجريد بجوفي بنطيوس[4]، والأخيرة عبارة عـن ثلاث مدن كلها عليها أسوار[5]، ثم أشير[6] وهو حصن قديم بينه وبـين مـسيلة مرحلـة[7] وبسكرة[8] قاعدة بلاد الزاب[9].

وعلى العكس من البكري(487هـ/1094م) الذي لا يذكر غير ميلة بالتخصيص أنها من غرر مدن الزاب،وإشارته إلى كون مسيلة من الزاب[10]، والإدريسي (548هـ/1153م) الذي يشترك مع ابن حوقل في غياب أي ذكر مباشر للبلاد، عدى ما أورده عن طبنة[11] نجد عند الحموي(625هـ/1227م) ما هو مختلف عن سابقيه، حين يصنف أربة وبسكرة ضمن ما قال أنه الزاب[12] من جهة، وأن الزاب كورة صغيرة يقال لها ريغ من جهة أخرى[13].

وبعد ذلك يصنف كل من بسكرة المدينة المسورة والتي تفصلها عن طبنة مرحلـة[14] وتوزر الواقعة أقصى إفريقية[15] وقسنطينة المدينة القلعة الواقعة إلى الغرب مـن إفريقيـة[16]، طولقة، قفصة التي يفصل بينها وبين القيروان ثلاثة أيام[17]، نفزاوة، نفطة وبينهما مرحلـة وعن قفصة مرحلتان وبادس[18]، يقول بأن هذه المدن من أعمال الزاب الكبير بالجريد مـن جهة ثالثة[19].

1- أنظر أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، ط3، القاهرة، 1411هـ، 1991م، ص221، 247.
2- الحميري، المصدر السابق، ص75.
3- المقدسي، المصدر السابق، ص221.
4- الحميري، المصدر السابق، ص400.
5- الحميري، المصدر نفسه، ص400-401.
6- المقدسي، المصدر السابق، ص221.
7- الحميري، المصدر السابق، ص200.
8- المقدسي، المصدر السابق، ص220.
9- الحميري، المصدر السابق، ص113.
10- أنظر المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، (د ط)، بغداد، (د ت)، ص59، 64.
11- أنظرنزهة المشتاق في اختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية، (د ط) ، القاهرة، 1422هـ، 2002م، مج1، ص260-265.
12- أنظر المصدر السابق، مج1، ص169، 501.
13- المصدر نفسه، مج3، ص139، والريغ كلمة بربرية تعني السبخة، نفسه.
14- الحموي، المصدر السابق، ج1، ص501-502.
15- المصدر نفسه، ج2، ص67.
16- نفسه، ج4، ص397.
17- الحموي، المصدر السابق، ج4، ص434.
18- المصدر نفسه، ج4، ص342.
19- نفسه، ج3، ص139.

وإذا كانت ريغ قد وصفت بالصغيرة زمن الحموي، فيبدو أنها لم تعد كذلك أيام ابن سعيد (685هــ/...م) حين بلغت الخمسة أيام طولا، مع أنه يكتفي بوصف بسكرة بقاعدة بلاد الزاب[1] وتغيب تفاصيل أكثر ، كما يقتصر صاحب الاستبصار على مسيلة، نقــاوس، طبنة، بسكرة وبادس[2] .

والظاهر أن الحميري نحى ذات المنحى، فرغم تعريفه بأغلب المدن السابق ذكرهــا إلا أنه ينسب عددا صغيرا منها لبلاد الزاب وهي، مسيلة، نقاوس، بسكرة، تهــوذه- الواقعــة بالقرب من بسكرة-، بادس وأذنة[3].

وعلى كل حال فإن الأمور لم تصبح أكثر وضوحا إلا زمن ليون الإفريقــي، الــذي أعطى ضبطا دقيقا لحدود ومدن الزاب، حيث ذكر أن الإقليم يتكون من خمسة مدن هــي، بسكرة، البرج – وتقع على بعد أربعة عشر ميلا غرب بسكرة حسبه ويقول المترجم أنهــا أربع وعشرون ميلا-، نفطة، طولقة، دوسن – بناها الرومان كما يذكر-، وعدد كبير من القرى، وبذلك تتاخم حدوده غربا مسيلة وتقف شمالا عند جبال مملكة بجاية[4]ويمتد شرقا إلى بلاد الجريد و القفار الصحراوية جنوبا[5].

وعلى ضوء ما قدمه الجغرافيون يتبين أن الصورة متحركة وغير واضحة، عن الحــدود والمدن المكونة لبلاد الزاب، وهنا تبرز الحاجة إلى الاطلاع أيضا على مــا ذكــره مؤرخــو الفتوح، لأن ذلك سيعطي بعض الملامح زمن قدوم المسلمين، ومما يمكن ملاحظتــه هــو إجماع أغلبهم على أن باغاية خارج نطاق الزاب، وأن أذنة أعظم مدنه[6]، كما نجد عند ابن

1- أنظر كتاب الجغرافيا، ت إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 1982، الجزائر، ص126.
2- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الإسكندرية، (د ط)، 1958م، ص171، 172، 175.
3- الحميري، المصدر السابق، ص20، 75، 281.
4- مملكة بجاية: قاعدة الغرب الأوسط، تقع على ضفة البحر، مدينة قديمة جدد بناءها فيما بعد ملوك صنهاجة ، أنظر،المصدر نفسه، ص80-82
5- أنظر وصف إفريقية، تر، محمد حجي، محمد الأخضر، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة، ط1، الرباط، 1983م، ص138، 139، 140.
6- أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، ت المنجي الكعبي، الناش،رفيق السقطي، (د ط) ، تونس، (د ت) ، ص41، 42، أنظر مزيد من التفاصيل في الفصل الثاني.

عذارى ما يشبه إلى حد كبير ما ذكره الحموي، حين يقول أن لبلاد الجريد اسم آخر هو الزاب الأعلى الذي تليه بلاد الزاب الأسفل الممتدة إلى حدود مدينة تاهرت[1] .

وأما المالكي فقد اعتبر طبنة ثغر إفريقية[2]، وهكذا يتبين أن معظمهم نسبوا طبنة بشكل قطعي للزاب،وعند ابن خلدون وصفان الأول عن البلاد الأول يقول فيه أن بسكرة قاعدة بلاد ريغ، والمتكونة من ثلاثمائة منتظمة–قرية–، والثاني أنها –بسكرة– قاعدة وطن الزاب في زمنه، فهل ذلك يعني أن بلاد ريغ هي نفسها بلاد الزاب؟، فهو يستطرد قائلا أن " الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة... يعرف كل واحد منها بالزاب... زاب الدوسن ، زاب طولقة،..."[3].

وبناءا على ما تم ذكره يمكن ملاحظة ثلاثة أمور –على الأقل–، الأول ما أطلق عليه الحموي وابن سعيد وابن خلدون بلد ريغ والذي يبدو أنه تسمية أخرى لبلاد الزاب وذلك بتصريح من الحموي الذي أطلقه على أكثر من منطقة، وهناك تشابه في التسميات بين ابن خلدون وليون الإفريقي، بالإضافة إلى ما يقارب هذه المعطيات لدى مؤرخي الفتوح فيما يتعلق بأذنة وما يحيط بها[4].

وأما الأمر الثاني فيتعلق ببلاد الجريد فهناك من يصفها مستقلة باسمها ومدنها، وهناك من يسميها الزاب الكبير أو الزاب الأعلى، واستنادا إلى هذه المعطيات تنبني الملاحظة الثالثة والمتعلقة بحدود بلاد الزاب، والتي يصبح أمر إعطاءها بعدا ثلاثيا مسوغا إلى حد ما فيضم بذلك الجغرافية والسياسية والإستراتيجية، وذلك في محاولة لتبرير التمدد والتقلص من فترة إلى أخرى.

فالحدود الجغرافية تمتد شمالا حتى سفوح الأوراس الجنوبية، وجنوبا إلى قفار الصحراء أما شرقا وغربا فالظاهر أنه لا يمكن ضبطها بشكل دقيق ، لكون المجال مفتوح على الجهتين،

1-البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ت ج، س، كولان، إ، ليفي برو فنسال، دار الثقافة، ط2، بيروت، لبنان، 1400هـ، 1980م، ج1، ص24.
2- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و إفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، ت بشير البكوش، راجعه، محمد لعروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1414هـ، 1994م، ج1، ص35-36.
3- أنظر العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، 1413هـ، 1992م، مج6، ص118.
4- أنظر ما سبق تفصيله.

وأما الحدود السياسية فترجع بالأساس إلى قوة وضعف الدولة أو الجهـة المـسيطرة علـى المنطقة، فقد اتسعت شمالا إلى ما وراء جبل أوراس لتتاخم حدود المدن الساحلية، عنـدما ضمت قسنطينة وميلة وسطيف، وتوقفت تقريبا في كل الفترات عند المسيلة غربـا والـتي اعتبرت الحد الفاصل بين إفريقية والمغرب.

وأما صورة الحدود الشرقية واستنادا إلى الجغرافيين الذين اعتبروا كلا من بلاد الـزاب والجريد مفتوحتان على بعضهما، فتغيب الفواصل الجغرافية؛ فإن وصف الجريـد بـالزاب الكبير أوالأعلى هو منتهى توسع بلاد الزاب، وهنا يأتي مصطلح الحدود الإستراتيجية والتي تعتمدها القوة المتنفذة في المنطقة حفاظا على أمنها السياسي ومصالحها الاقتصادية، لما تمثلـه هذه الجهة من حيوية تؤثر إيجابا وسلبا في كل البلاد، بمعنى أدق حتى ولو لم تكن خاضـعة لسلطانها المباشر تحاول جعلها موالية لها.

المبحث الثاني: عناصر السكان.

لعل الغرض من البحث في تركيبة المجتمع الزابي هو السعي وراء تفسير الأحداث التي وقعت أثناء وعقب الفتح الإسلامي، ذلك أن سكان هذه المنطقة كان لهم دور بارز فيها انعكس على تاريخ المنطقة ككل،على اعتبار أن هذا المجتمع جاء نتاج تجارب كثيرة تركت بصمتها الواضحة متجلية في مناحي عديدة.

فالمتأمل للخريطة التاريخية الخاصة بالمنطقة يجد زخما من الأحداث التي شهدتها لفترات زمنية متتالية وطويلة، كون المنطقة تعد جاذبة للاستعمار لأسباب مختلفة ، منه الروماني و الوندالي وصولا إلى البيزنطي.

ونظرا لأن كل من يحل بالبلاد يعتبرها ولاية تابعة له أو إرثا من حقه أو جائزة نالها، وهذا ما يجعله –وحسب خلفيته- يسطر السياسات التي تتلاءم والمنطقة –وهو ما سيتضح في المبحث القادم-، أهمها البحث عن الاستيطان ضمانا للتحكم في البلاد وجعلها موردا لا ينضب لاقتصاد الدولة الأم.

ونتيجة لهذه السياسة تم خلق تركيبة اجتماعية متميزة تتألف من عناصر ثلاث رئيسية هي، سكان البلاد الأصليين –أو أهلها-، العنصر الوافد –أيا كان أصله- والنتاج الهجين للتمازج الذي حدث بين الفئتين الأولى والثانية.

فأهل البلاد الذين اختلفت وتعددت الروايات حول لأصل وجودهم بالمغرب كله، إلا أنه يعود إلى أحقاب غابرة[1]، وهو أمر ينسحب يشمل بلاد الزاب أقله على مدى القرون الثلاث الأخيرة قبل قدوم المسلمين، بحيث انتشرت فيها قبائل بربرية –بتر وبرانس- عبر مناطق مختلفة وبكثافة متباينة.

فالناظر في المصادر الجغرافية يجد مناطق معينة كان التمركز فيها عاليا،حيث تداول الجغرافيون أسماء المدن ذاتها تقريبا هي، المسيلة، طبنة، باغاية وبسكرة وإذا كان ابن خرداذبة

1- ابن خلدون، العبر، مج7، ص09.

قد عمم الوصف حين جعل الجبال منازل لزناتة ومغيلة دون تحديد لها[1] ، فالأمر يختلف عند البقية بحيث أعطوا تفاصيل أكثر وأدق عن توزيع القبائل عبر مختلف نواحي الزاب.

فابن حوقل ذكر أن المسيلة موطن لكل من بني برزال، بنو زنداج، هـوارة ومزاتـة[2] ويذكر البكري أن عجيسة وهوارة قريبة منها[3]، ويضيف الإدريسي إليها صدراتة[4] واعتبرها صاحب الاستبصار والحميري منتشرة حول المدينة[5]، وهذه التوصيفات تعطي صورة عـن التحرك الدائم وتغيير المواقع الذي تقوم به تلك القبائل دون انتقال كلي من المنطقة.

وأما فيما يتعلق بطبنة فأهلها أخلاط[6]، ويقطن حول باغاية بربر هوارة بجبـل أوراس وبربر عجم[7]، وتسكنها قبائل من لواتة وضريسة[8] وأما بسكرة فتحيط بها كل من سـدراتة ومغراوة [9]وحول نقاوس أوربة ويسكن خارج مقرة بنو زنداج، قوم كزبرة وقوم سارسة[10]، وفي تهوذة نجد هوارة ومكناسة[11] .

وعلى كل حال يبقى الملمح العام لانتشار البربر في بلاد الزاب عاما ولذا قد نجد عند ابن خلدون ما يساهم في توضيح الرؤيا أكثر، فقال أن المغرب الأوسط ديار زناتة بالإضافة إلى مغراوة، مديونة، مغيلة، كومية، مطغرة ومطماطة، فتمركزت بجبـل أوراس ورفجومـة ولواتة بأعداد كبيرة مع هوارة وكتامة وجراوة[12]، وبالمسيلة بنو ملكـان بـن كـرت – صنهاجة[13]–.

وعلى هذا النحو يمكن لأمور مختلفة أن تلفت الانتباه، فالمنطقة كانت للبربـر البتـر بالأساس وتشمل لواتة، نفزاوة، ورفجومة –أوسع بطون نفزاوة–وجراوة الزناتية مع عـدم

1- انظر المصدر السابق، ص84.
2- أنظر المصدر السابق، ص85.
3- أنظر المصدر السابق، ص59.
4- انظر المصدر السابق، مج1، ص254.
5- أنظر المصدر السابق، ص172، أنظر المصدر السابق، ص558.
6- اليعقوبي، البلدان، ص190، الإدريسي، المصدر السابق،مج1، ص263، الحميري، المصدر السابق، ص558.
7- اليعقوبي، المصدر نفسه، ص190.
8- الحميري، المصدر السابق، ص77.
9- البكري، المصدر السابق، ص52، الحميري، المصدر السابق، 114.
10- اليعقوبي، المصدر السابق، ص190، 191.
11- البكري، المصدر السابق، ص73
12- أنظر العبر، مج6، ص120و مج7، ص10، 11، 14.
13- المصدر نفسه، مج6، ص135، 137، 142، 180.

إغفال تواجد البرانس ممثلين في قبيلة أوربة، وبعض بطون كتامة[1]، بالإضــافة إلى عجيــسة بنواحي مسيلة[2].

أضف إلى ذلك أن مؤرخي العصور الوسطى أطلقوا على السكان الأصليين الخارجين عن سيطرة البيزنطيين اسم المور، لرفضهم الانضمام والاندماج في حضارة الآخــر، وهــم منتشرون في أوراس والحضنة والمرتفعات الموريطانية الوسطى والغربية[3].

ومن خلال هذا العرض يتضح أن توزيع القبائل البربرية في بلاد الزاب يبرز ســيطرة البتر على حساب البرانس، الأمر الذي ترك بصمته عند قدوم المسلمين بالإضافة إلى انعكاسه على توزيع وتواجد باقي العناصر المكونة للمجتمع الزابي، بحيث يفسح المجال أمــام معرفــة مناطق انتشار البيزنطيين ومراكز كثافتهم.

وأما العنصر الثاني فهم الروم ويشملون الرومان والونــدال والبيــزنطيين، بحكــم أن السلطة والإدارة السياسية هي ما يتغير وليس بالضرورة السكان، والذين يفدون للاســتقرار فمن غير المحتمل أن يغادروا بشكل كلي مع رحيل السلطة التي ينظوون تحتها.

وهذه الفئة لها تسميات مختلفة بين صفحات المصادر التاريخية والجغرافية، كالنــصارى والعجم وعجم من عجم البلد من بقايا الروم.

فاليعقوبي يميز بين العجم والروم عند الحديث عن سكان طبنة، ليعود ويجعلــهم فئــة واحدة حين يذكر أن بباغاية عجم من عجم البلد من بقايا الروم، واقتصر على ذكر قوم من العجم في مقرة[4]، ووصف صاحب الاستبصار النصارى في تهوذة وبادس بالقوة الكــبيرة[5]، وهذا الأمر يؤكد على أن الجغرافيين العرب لم يدققوا كثيرا في نوع اللفظ الذي يطلقونــه على هذه الفئة، واعتبروا هذه النعوت مهما اختلفت فهي مناسبة لهم.

1- عبد الوهاب بن منصور، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، (د ط) ، الرباط، 1388هـ،1968م،ج1، ص338-340، وأنظر أيضا فوزي عبد المطلب، الخلافة والخوارج في المغرب العربي الصراع بينهما حتى قيام الأغالبة، (د د ط) ، ط1، (د م ك) ، 1393هـ، 1973م، ص53-59.
2- سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، (د ط) ، الإسكندرية، 1995م، ج1، ص96.، عبد الوهاب بن منصور، المرجع السابق، ص340.
3- محمد البشير شنيتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ديوان المطبوعات الجامعية، (د ط) ، (د ت) ، ج2، ص443.
4- أنظر البلدان، ص190، 191.
5- أنظر المصدر السابق، ص175.

أَضف إلى ذلك موقف المؤرخين الذي لم يختلف ، فقد وصفوهم في حملة عقبة الثانية بالنصارى اللاجئون إلى باغاية، والروم الذين ذهب عزهم من الزاب، بعد أن كانت أذنة أعظم مدائنهم ودار ملكهم[1]، لكن المهم في هذا الوصف هو الصورة التي أعطاها عن مدى انتشار وتمركز البيزنطيين في بلاد الزاب.

وفي تعداد الباحثين للمناطق التي انسحب منها الرومان وتجنبها الوندال وحاول البيزنطيون استرجاعها بعد سيطرة البربر عليها، ذكروا مناطق انتشارهم ومنها المقاطعة القيصرية وأغلب السطايفية[2]، وعند الحديث عن السياسة الزراعية للرومان يتم ذكر جلبهم لأعداد كبيرة من المستوطنين الرومان لتوظيفهم[3]وأن طبنة تضم بالإضافة إلى البربر حنود الحاميات العسكرية ومظفون ينتمون لمختلف الجنسيات الآتية من بحر الروم[4] .

ومما سبق يتبين أن المنطقة كانت عامرة بالروم المستوطنين الذين جلبوا للعيش في بلاد الزاب ولتسيير سياسات دولهم.

وأما العنصر الثالث فهو الهجين الناتج عن تزاوج الفئتين الأولى والثانية، والذين هم المولدون عند البكري[5]، وقد يشملهم مصطلح النصارى[6] ، أو العجم الذين فصلهم اليعقوبي عن الأفارقة والروم أو هم بربر عجم[7]، كما يمكن إدخال الأفارقة ضمن هذه الفئة لكونهم يعيشون في مدن الروم أين يعملون بالزراعة وهم مصطبغون بحضارة الغالب –مع اختلاف أعراقهم وطبقاتهم الاجتماعية وانتماءاتهم الدينية[8]–.

1- الرقيق، المصدر السابق، ص10، 11، المالكي،ج1، المصدر السابق، ص35-37.
2- شنيتي، المرجع السابق،ج2، ص458.
3- محمد الصغير غانم، نظام الزراعة والري في منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية، التراث، شركة الشهاب، الجزائر، العدد4، 1989م، ص17.
4- موسى لقبال، طبنة مدينة الزاب و الأوراس في العصور الوسطى، الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، العدد60-61، 1978مـ، ص95.
5- أنظر المصدر السابق، ص52.
6- مجهول، المصدر السابق، ص175
7- أنظر البلدان، ص190.
8- موسى لقبال، طبنة مدينة الزاب، ص95، انظر أيضا شنيتي، المرجع السابق،ج2، ص444،443.

المبحث الثالث: الحياة السياسية والإدارية

إن التعرف على ملامح الزاب الجغرافية وتركيبته الاجتماعية يوضح الصورة عما يمكن أن يكون من أحداث سياسية شكلت تاريخ المنطقة كلها، فعن التركيبة الجيولوجية نجد أنها لعبت دورا مزدوجا عندما حالت دون قيام وحدة سياسية لأهل البلد ضد من مر بهم من شعوب عبر الزمن[1]، فقد سيطرة النظم القبلية من جهة[2] ومكنت من جانب آخر القبائل في جبل أوراس من الاحتفاظ باستقلالها بعيدا عن كل مستعمر[3].

وقد حاول البيزنطيون من خلال السياسات والنظم التي سطروها ضبط وتسير المنطقة[4]، فمع استعادتها من الوندال سنة 533م عملت على بسط النفوذ ورد الأمور إلى ما كانت عليه زمن الرومان، ومنها بالتأكيد بلاد الزاب والتي ستظهر أهميتها لهم من خلال ما قاموا به فيها.

فقد عملوا على انتزاع بعض المناطق التي كانت خاضعة لأمراء البربر المستقلين منذ حكم الوندال، وهي مدن إستراتيجية في بلاد الحضنة منها طبنة وزابي وأعادوا بناءها، لتضررها بشكل كبير جراء غارات البدو زمن الوندال الذين ضعفت سيطرتهم بمرور الوقت[5] الأمر الذي سهل على البيزنطيين طردهم منها بشكل نهائي والسيطرة[6] عليها بالإضافة إلى كتلة الأوراس[7]، من خلال إقامة سلسلة من الحصون على سفوحها الجنوبية- لمبيز، باغاي[8].

وإذا كان هدف جستنيان (527-566م) هو إعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية، فإن ذلك يبدو غير ممكن لأنهم وجدوا مناطق مستقلة في شكل إمارات قوية، منها الواقعة على

1- ألفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، لبنان، 1987م، ص38.
2- محمد أحمد حسونة، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، (د ط)، الفجالة، 1960، ص54-56.
3- دائرة المعارف الإسلامية، مادة أوراس، مج3، ص123.
4- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، دار المصري للطباعة، (د ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د ت)، ص70.
5- شنيتي، المرجع السابق، ج2، ص176، موسى لقبال، طبنة مدينة الزاب، ص87.
6- محمد مرسي الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، (د ط)، الإسكندرية، 1996، ص44، 45، أنظر أيضا السيد الباز العريني، الدولة البيزنطية 323-1081م، دار النهضة، (د ط)، بيروت، 1982، ص69-71.
7- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص14.
8- دائرة المعارف الإسلامية، مادة أوراس، مج3، ص123، لمبيز: اختلف المؤرخون العرب في تسميتها ولم نجد لها ذكرا في المصادر الجغرافية التي أتيحت لنا، فأطلقوا عليها لميس، المسن، بليش، مليش، أنظر، المالكي، المصدر السابق، ص35-36، الهامش.

تخوم الأوراس ونوميديا الجنوبية منذ عهد الوندال بقيادة ملك ومساعدة قائـــدين أعطـــى لأحدهما قيادة الحضنة وجنوبي الأوراس[1].

وعلى ضوء هذه الخريطة السياسية يمكن التنبؤ بأن الموقف من البيـــزنطيين لم يكـــن واحدا، فالمناطق التي تعد نقاط تمركز أحفاد المستوطنين الرومان من مجتمع مدني وأســـاقفة كاثوليك –على سبيل المثال– في لمبيز، تيمقاد وباغاي قد رحبوا بقدومهم[2] .

لكن في المقابل انقسم موقف البربر إلى ثلاث، الأول ضم المساندين ضد الونـــدال[3]، فمن هي هذه الفئة تحديدا؟ هل هم زناتة الذين كانوا أواخر العهـــد البيزنطـــي متحـــالفين معهم[4]، فابن خلدون يقول أن الزناتيين أدوا أواخر العهد البيزنطي طاعة معروفة وقاتلوا في الجيش[5].

ولعل الأمر الذي يمكن استنتاجه من هذا التحليل هو التحالف الذي قام بين الجـــانبين في أواخر العهد البيزنطي، له جذور ترجع إلى سنوات قدومهم إلى المنطقة، فقد اتفق الجانبان في بادئ الأمر ضد الوندال، لكن سياسات الطرف البيزنطي أشعلت الحرب ليعود الوفـــاق بعد أن هدأت الأحوال على ما يبدو.

ووقفت فئة أخرى موقفا سلبيا محايدا، فحاول البيزنطيون استمالتهم بالهدايا، فأعلنت ولاءها بإرسال الرهائن مع عدم التدخل في الحرب بين الطرفين إلى نهايتها[6].

ولكن في حقيقة الأمر أن الموقف تغير بعد سنتين فقط من دخولهم، حيـــث بـــدأت المقاومة انطلاقا من سنة 534م والتي قادها –كما مر بنا– ملوك الإمارات عندما اصطدمت مصالحهم بالوافد الجديد، ويرى شنيتي أن هذه القبائل كانت حليفة للوندال الذين جعلـــهم الضعف أواخر عهدهم يحتمون بهم من الغارات الجنوبية[7].

1- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص22، شنيتي، المرجع السابق،ج2، ص411.
2- شنيتي، المرجع السابق،ج2،ص410، 411، أنظر ايضا جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية(284-1453م)، دار المعرفة الجامعية، (د ط)، الإسكندرية، 1999، ص78.
3- شنيتي، نفسه، ص410.
4- محمد بن عميرة، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ط)، الجزائر، 1984، ص31.
5- أنظر العبر، مج7، ص10.
6- شارل أندريه جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تر، محمد البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، (د ط)، (د ب ط) 1969، ص365.
7- المرجع السابق، ج2، ص410-411.

وقد قام أحد ملوك هذه الإمارات باجتياح المقاطعة النوميدية وإخضاع أهلها لسلطانه بعد أن كانوا تحت حكم البيزنطيين، لكن وقع هذه الأحداث كان شديدا على القائد البيزنطي صولومون(534-536م/539–544م)، فقاد حملة سنة 535م انتقم فيها من البربر شر انتقام فأثخن فيهم بالقتل وأكثر السبي[1].

وقد تزامنت مع تلك العمليات العسكرية حركة سريعة لبناء سلسلة من التحصينات لحماية الأراضي التي أخضعتها من غزو البربر[2]، وذلك استنادا إلى الليمس الروماني[3] بما يتناسب مع الواقع الجديد، حيث وصلت الحدود غربا إلى زابي جستنيان وتمكنوا من مراقبة الحضنة من خلال حصن بلزمة، ومن مشارف الأوراس أشرفوا على منافذ قلاع خنشلة Mascula، لمبيز Lambese وتيمقاد Thamogadi.[4]

وقد عُدَت هذه التحصينات عملا خاطفا للتموقع في حصون منيعة قبل استقبال ردت فعل السكان، ومن المحتمل أن الآلاف من البربر قد تم تسخيرهم في إعادة البناء والترميم لتزامن العمل في مواقع مختلفة مما يعني الحاجة المتزايدة لليد العاملة[5] .

وعلى كل حال فإن السياسات البيزنطية قد أثمرة عداء المور- البربر- لم تعد تنفع معه التحصينات، والتي أصبحت في حقيقة الأمر عاجزة عن إعاقة حركتهم –خاصة- بين منطقة الأوراس التي بالغوا في تحصينها، وبين المناطق الخارجة عن سيطرتهم غربا لتعود القبائل وتستقر في السفوح الجنوبية لأوراس بدءا من سنة 546م[6].

وإذا كان أبعد تحصبن موغل في الداخل هو طبنة وزابي المرتبطين بلمبيز وسطيف بطرق اخترقت مرتفعات بلزمة وحاذت جبال الحضنة، فمن المحتمل أنهما خرجت من سيطرتهم بعد اشتداد المقاومة، وتقلص نفوذهم على المجتمع المسيحي والموالي ببلاد الزاب[7].

1- المرجع نفسه،ج2، ص413-414.
2- نفسه، ص413-414.
3- عن الليمس الروماني أنظر، شنيتي، نفسه، ج1، ص وما يليها، 117، والليمس البيزنطي، المرجع نفسه،ج2، ص414 وما يليها، و جوليان، المرجع السابق، ص362 ومايليها.
4- جوليان، المرجع السابق، ص363.
5- شنيتي، المرجع السابق،ج2، ص416-417.
6- شنيتي ،المرجع السابق، ج2، ص430.
7- شنيتي، المرجع نفسه، ج2، ص431، 500.

وإن كان هناك من رأى في التحصينات أمرا مبالغا فيه يعبر عن خطورة العدو مع قلة الثقة في الجيش[1]، فإن طرفا آخر أعطاها بعدين الأول رأى فيه أنها منحت إحساسا للبربر بخوف البيزنطيين منهم، الشيء الذي أعطاهم دافعا قويا لمواجهتهم والثاني أن المظهر العسكري الذي ظهرت به الدولة، أثر في القبائل بشكل لم تعد معه تستخف بها ولو لفترة من الزمن.[2]

ولكن التحليلين يمكن أن يتكاملا، فبقدر ما كانت تخوفات البيزنطيين كبيرة بسبب ما رأوا من ردة فعل عنيفة، بقدر ما أدخلت الفزع التحركات السريعة في العمليات العسكرية المتزامنة مع بناء التحصينات، بالرغم من أن الوضع لم يستمر طويلا حتى اشتعلت الحرب بين الجانبين.

وعلى هذا النحو يبدو الأمر كما وصفه بعض الباحثين، من أن اهتمام بيزنطة ومن سبقها بالبلاد لم يكن إلا بالقدر الذي يسمح ويكفل لهم الانسياب السهل للمال والمئونة دون مشاكل أمنية –خاصة–[3].

فرغم ما وصفت به سياسات جستنيان اتجاه المنطقة بالدقة والحذر لدرايته بطبيعة البلاد وأهلها[4]، متجسدة في هيكل إداري ذو طابع عسكري وقانوني[5] إلا أن ذلك لم يكن مجديا.

وهذا النظام الذيماانفك الباحثون يذكرون أنه بدأ مدنيا زمن جستنيان، ليتحول إلى عسكري مع الإمبراطور موريس(582–602م)[6]، فهل يعني هذا أن القادة الذين تذكرهم كتب التاريخ من أمثال صولومون وتروجلية(547–563م) اللذان توليا العمليات زمن جستنيان، اقتصر عملهم على الجانب العسكري فقط فيما تولى الولاية حاكم مدني؟ من

1- ألفرد بل، المرجع السابق، ص76.
2- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص21، 23.
3- إبراهيم حركات، ثورة كسيلة والكاهنة ومصير الإسلام بالمغرب الكبير، الأصالة، ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر، وزارة الشؤون الدينية، باتنة، 1987، ج2، ص255، أنظر أيضا موسى لقبال، البتر والبرانس والمظهر الاجتماعي لسكان بلاد المغرب قبل الإسلام، الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، العدد24، 1975، ص159.
4- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص14.
5- جمال مختار، حضارات إفريقيا القديمة، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام، اليونيسكو، مطابع كانالي، جون أفريك، (د ط)، إيطاليا، باريس، 1985، مج2، ص115.
6- نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص26، حسين مؤنس، المرجع السابق، ص14.

يكون؟ إذ لا نجد ذكرا له ، أم أن الموظفين هم المدنيون ويأتمرون بأوامر حاكم عسكري عام، وأن النظام العسكري يعني سيطرة العسكريين على جميع الإدارات والوظائف؟.

ومن هذه النظم خصت الزاب –والتي تنضوي تحت مقاطعة نوميديا- بحاكم عسكري كغيرها من المقاطعات الأخرى، تناغما مع إرادة عليا –الإمبراطور- لاسترجاع أملاك روما وصيانتها من هجمات البربر[1]، وجعلها موردا للمال تعويضا عما أنفق على استعادتها بإطلاق يد الحاكم العام مع صلاحيات واسعة[2].

ومن بين هذه الصلاحيات تنفيذ نظام اقتصادي قائم على الجباية ، والذي تصب كل الصلاحيات الأخرى في خدمته، مع ما كان يصدره جستنيان من قوانين متضاربة بين الرفق بالرعية والعمل بجد على تحصيل الأموال[3].

فإذا تمت إضافة محاولة إجبار الأهالي على اعتناق مذهب الإمبراطورية الكاثوليكي الذي اعتمد سنة 535[4]م إلى ما سبق، اتضحت أسباب الرفض لدى البربر.

وفي فترة لاحقة عندما اعتلى هرقل الشاب العرش(610م) خفف الضغط على بلاد المغرب عموما لأن أهلها ساهموا في وصوله إلى الحكم، وفي المقابل كانت الكنيسة الكاثوليكية –في روما- تعمل على نشر مذهبها بين البربر، وقد نجحت في ذلك بينما كانت الصراعات المذهبية في بيزنطة على أشدها[5]، والتي أدت بمرور الزمن ومنذ وفاة هرقل الكبير- حكم إفريقية منذ610م- إلى انفصال البلاد بشكل نهائي على يد جريجوريوس سنة 646م[6].

1- جوليان، المرجع السابق، ص361، 363.
2- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص14، 16.
3- حسين مؤنس، المرجع نفسه، ص17.
4- جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص77، أنظر أيضا، عبد الوهاب بن منصور، المرجع السابق، ص104.
5- السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة، (د ط)، بيروت، 1981، ج2، ص75.
6- حسين مؤنس، فتح العبر للمغرب، ص37-47، أنظر أيضا، السيد عبد العزيز، المرجع السابق، ج2، ص73، نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص28، جريجوريوس، فلافيوس الأرمني، أو كما يسميه العرب جرجير، أنظر، مؤنس، المرجع نفسه، ص84.

المبحث الرابع: الأوضاع الاقتصادية.

إذا كان للموقع الجغرافي الدور الذي لا يمكن إغفاله في الأحداث السياسية التي مرت بها بلاد الزاب، فكذلك هو الأمر بالنسبة لتحديد مجالات النشاط الاقتصادي، فـــالجغرافيون العرب يصفون الأوراس بأنها منطقة تساقط، ومدن الزاب عامرة ومثمرة[1] وغلاتها من الحنطة والشعير كثيرة، وتبرز فيها تربية المواشي[2]، هذا بالإضافة إلى توفر منابع المياه وانتشار الثمار الجبلية وأشجار النخيل[3].

وكذلك كان الأمر مع مؤرخي الفتوح في تعريفهم بالبلاد التي فتحهـــا المـــسلمون، وحديثهم عن الكم الهائل من الغنائم التي حصلوا عليها، هذا الوصف ترك انطباعات مختلفة أوردها حسين مؤنس معقبا عليها.

فقد اعتبر أحدهم أن السهول الممتدة جنوب الأوراس هي أراضي زراعية ومدن وقرى مأهولة على امتداد كبير، في حين عدَها آخر مبالغة لأنها استندت علـــى روايـــات عربيـــة أصحابها أهل صحراء، لا يعرفون غير الرمل والصخر فجاءت أوصافهم مبالغ فيها، فالمنطقة –حسبه- أقفرتها الحروب والنازعات –وهذا ينسحب دون شك على بلاد الزاب-.

وانطلاقا من هذين الاتجاهين رأى مؤنس أن أول عهد العرب بالخضرة لم يكن في بلاد المغرب، فقد مروا بها في مصر، ويرجح أن العرب وجدوا سلسلة من الواحات لأنهم سلكوا طريق السهل الداخلي، والذي من المحتمل أن يكون مزروعا أواخر العهد البيزنطي شـــاملا مناطق عدة منها هضبة أوراس[4].

وإذا أردنا ترجيح كفة أحد هذه الآراء –ولو بشكل نسبي-، فيمكن إلقاء نظرة على السياسات الاقتصادية التي طبقها البيزنطيون في المنطقة، والتي حاولوا من خلالهـــا اســـتعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية بإتباع خطواتها قدر الإمكان، والمرتكزة بشكل رئيسي على مـــا اصطلح عليه المؤرخون بالرومنة.

1- اليعقوبي، البلدان، ص190.
2- ابن حوقل، المصدر السابق، ص84، 85، 91، 92.
3- المقدسي، المصدر السابق، ص227، 230، البكري، المصدر السابق، ص48، 52، الإدريسي، المصدر السابق،مج1، ص263، 276.
4-حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص40-42.

ولعل أهمها تلك المرتبطة بالزراعة كونها الشريان الرئيس لاقتصاد تلك الفترة، والتي كانت من أهم الأسباب التي أعادت البيزنطيين إلى المنطقة، فهي أهراء روما للقمح Greniers de Rome ، التي عرفت حركية جعلت الرومان يتحكمون في نظمها عن طريق إنشاء السدود، توصيل قنوات المياه، حفر الآبار وبناء الخزانات[1].

فإذا كان الوندال قد خربوا الكثير من المنشآت، فهل من المحتمل أن تشمل تلك العمليات نظم السقاية؟ لأنهم طبقوا النظام الإقطاعي، و لم يفلحوا الأرض على الأغلب بأنفسهم بل تركوها لأهلها مقابل أخذ الضرائب[2]، ولعل الاحتمال الأكثر قبولا هو استثناؤها من الهدم كونها تخدم مصالح إستراتيجية لهم، وتماشيا معها ورعاية لها يمكن القول أن البيزنطيين كذلك اعتمدوا عليها، مع اختلاف طبعا في مناطق النفوذ حتى في بلاد الزاب.

وفيما يتعلق بالمحاصيل فقد حظيت الحبوب خاصة القمح والشعير بالأولوية في العناية، وقد انتشرت في التخوم الأوراسية الصحراوية ، لتأتي غراسة أشجار الزيتون بعدها على أطراف الصحراء[3].

ولأن بيزنطة –كسابقاتها– تعتمد على إفريقية عموما في الحصول على جزء مهم من حاجياتها من القمح، فقد عززت سبل التحصيل بجملة من الإجراءات أهمها، فرض ضريبة الأنونا Annona السنوية والتي تدفع قمحا[4]، والراجح أنها تفرض على أصحاب الأراضي التي لم تمكنهم الأوضاع الأمنية من السيطرة عليها، كما قاموا أيضا بإعادة توزيع تلك المنتزعة من الوندال على أصحابها السابقين والبحث عن الجيل الثالث من الأحفاد إذا استدعى الأمر ذلك[5].

1- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص16، 23.
2- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق،ج2، ص34-35.
3- غانم، المرجع السابق، ص24، 32.
4- جمال مختار، المرجع السابق، ص518، وأما بالنسبة للضريبة فلم تسعفنا المصادر في معرفة مقدارها.
5-جمال مختار، المرجع نفسه، ص518.

وقد كان هدفهم من وراء هذا الإجراء تجنب المشاكل في جمع المحاصيل، وذلك من خلال وضع الأراضي في أيدي يضمنون ولاءها، فقد أوقف هرقل المسن في عهد الإمبراطور فوكس سفن القمح التي كانت تغادر إلى بيزنطة كل عام.[1]

وبالإضافة إلى هذا قام البيزنطيون باعتماد نظام نقدي في المعاملات المالية ساهم في تقوية الاقتصاد، وعززوه بتنصيب وكلاء رسميين مهمتهم إدارة التجارة الخارجية بحيث يستطيعون التحكم في كل شاردة وواردة، ورغم غياب أدلة ملموسة عن استفادة الأرياف من هذا الرواج[2]، إلا أنه من المحتمل أن تكون المدن البيزنطية في بلاد الزاب قد استفادة منه.

وعن مآل البلاد قبيل قدوم المسلمين يرى شارل أن ما طبقته بيزنطة قضى على أسباب نهضة البلاد نهائيا، على اعتبار أن السياسة الجبائية كانت قاسية وقائمة على استغلال الأهالي[3]، ووصفها مؤنس بالأهدأ حالا والأكثر ازدهارا أكثر من أي وقت آخر[4] ، وهذا ما ينسحب على جميع البلاد شاملا كل النواحي وهو ما ذهب إليه السيد عبد العزيز مستندا إلى ما قدمه مؤرخو الفتوح[5].

واعتمادا على هذه الأوضاع قام جريجوريوس بالاستقلال بولاية إفريقية حتى لا يلحقها الانهيار الذي عم بيزنطة[6]، وأما شنيتي فيقدم تحليلا يلفت الانتباه، فقد رأى أن تراجع نفوذ السلطة على المناطق لا يعني بالضرورة تدهور الحياة العامة، وأن بلاد المغرب معتادة على لامركزية الحكم في تسيير النشاط الاقتصادي، لتوفر الموارد الطبيعية التي تضمن حركية اقتصادية ذاتية، وبالتالي نشاط اقتصادي مستمر ووتيرة إنتاجية جيدة أدهشت المسلمين[7].

1- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص33، 34.
2- جمال مختار، المرجع السابق، ص518.
3- ش.أ جوليان، المرجع السابق، ص376.
4- ش.أ جوليان ،المرجع نفسه، ص36.
5- المرجع نفسه، ص77.
6- مؤنس، المرجع السابق، ص40.
7- أنظر المرجع السابق، ج2، ص505.

المبحث الخامس: الحياة الاجتماعية.

تعد الحياة الاجتماعية النتاج الأوضح لتمازج كل العوامل التي سبق طرقهـــا، فهـــي القالب الذي تصب فيه تأثيراتها لتشكل الملمح العام والتفصيلي لتركيبة ونمـــط حيـــاة أي مجتمع، وتعطي لها إلى جانب ذلك تفسيرات منطقية وواقعية لما يدور داخلها، فإذا كانـــت الأسرة النواة الأولى في أي مجتمع ومنه القبلي، تكون مركبة عادة من أبناء وأحفـــاد مـــع زوجاتهم وأبنائهم مشكلة بطنا من بطون القبيلة[1].

وأما فيما يتعلق بالتدرج الطبقي للقبيلة، فهو يشمل الملوك كرأس للهرم الاجتمـــاعي والسياسي، فرؤساء الاتحادات القبلية، ثم شيوخ القبائل والعشائر وهم الأقيال و الأمـــراء[2]، والملك هو على الأرجح شيخ القبيلة الكبيرة كزناتة –على سبيل المثال- ويسمى أمغـــار[3]، والرؤساء هم زعماء القبائل المنضوية تحتها والمتحالف معها والأقيال قادة البطون، هذا مـــا يمكن وصفه بالهيكل الاجتماعي العام.

وعما يتصل بالتقسيم الداخلي للفئات المكونة للقبيلة، فهناك تقسيم وفق طبيعة النشاط الاقتصادي الممارس والذي يقسمها إلى ثلاث فئات يمكن إسقاطها على مجتمع بلاد الـــزاب وهي:

طبقة المزارعين وهم من يستدعي نمط حياتهم الاستقرار في القـــرى، طبقـــة ســـكان الواحات ويأتي ترتيبهم ثانيا لكونهم أصحاب زراعة لكنهم على صلة كبيرة ودائمة بالبـــدو المتنقلين، والصنف الثالث يضم من جمع بين الزراعة والرعي، وتشكل هذه الفئات الـــثلاث طبقة الزراع.

وتعد آخر فئات المزارعين أولى طبقات الرعاة، ثم رعاة الغنم فرعاة الإبل[4]، ويمكن توزيع هذه الطبقات في بلاد الزاب على التوالي من الشمال إلى الجنوب، بحيث تنطبـــق الطبيعـــة الجغرافية عليه وبذات الترتيب.

1- ألفرد بل، المرجع السابق، ص50، 53.
2- ابن خلدون، العبر ، مج6، ص125.
3- مذكرات البيدق، نشر، ليفي بروفنسال، نقلا عن، سعد زغلول ، المرجع السابق، ج1، ص،99
4- سعد زغلول، المرجع نفسه، ص100-104.

ووفقا لهذا التقسيم إنبنت حياة اجتماعية خاصة، فهناك العلاقات داخل الأسرة الواحدة والمبنية على رباط شرعي وحتى عرفي –الزواج–، تحكمه مجموعة من الأعراف القبلية المحلية، التي تسمح بتعدد الزوجات وتعطي حق الإرث للذكر دون الأنثى، هذا بالإضافة إلى ما يمكن اعتباره امتيازا يحصل عليه كل قادر على الإنفاق وهو التسري[1].

لتلي ذلك العلاقات الأسرية الروابط التي تجمع أسر البطن الواحد، والخاضعة لقوانين والتزامات معينة نحو الجماعة[2]، وقد أفضت هذه العلاقات بالإضافة إلى التحالفات السياسية إلى اختلاط وتمازج بين القبائل[3]، يدعمه بشكل قوي رباط الزواج الذي لا يستبعد انتشاره بينها، فضلا عن تواجده داخل القبيلة الواحدة[4].

وعلى هذا النحو يفرز هذا النسيج بشكل تلقائي تركيبة معينة من المعتقدات والعادات، لكن الطارئ على هذا الوضع عدم استقلال المجتمع البربري في بلاده، فقد مرت عليه فترات استعمارية مختلفة، فابن خلدون يذكر أن البربر دانوا بالمجوسية ودين من غلب عليهم، فقد اعتنق بعضهم اليهودية –كقبيلة جراوة في الأوراس– و كذا النصرانية[5]، ولكنه لم يحدد مناطق انتشارها وما إذا كانت المجوسية بقية زمن البيزنطيين.

وما لا يمكن نفيه هو وجود اليهودية وانتشار النصرانية خاصة في بلاد الزاب، على اعتبار أنها منطقة احتكاك دائم ومباشر بين أي وافد وأهل البلاد بمختلف صوره.

ويعلق دبوز على اعتناق أهل الأوراس اليهودية ويصفه بأنه ردة فعل ضد البيزنطيين أهل المسيحية[6]، فهل الأمر كما يصفه؟ أم أنه متعلق بكون اليهودية الأقدم، هذا بالإضافة إلى أن المسيحية دخلت البلاد قبل ذلك بقرون، وهل للخلافات المذهبية التي أخذت أبعادا خطيرة زمن البيزنطيين دور في عزوف أهل الأوراس عنها؟ –إن سلمنا بأن الأمر كما وصفه–.

1- ألفرد بل، المرجع السابق، ص50، 51.
2- ألفرد بل، المرجع نفسه، ص53
3- سعد زغلول، المرجع السابق، ج1، ص99.
4- بل، المرجع السابق، ص52
5- أنظر العبر، مج6، ص125، 126، مج7، ص10
6- محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، (د د ط)، ط1، 1382هـ، 1963م، ج2، ص77.

أضف إلى ذلك فمؤنس مثلا يذكر أن المسيحية عرفت بعـــض الانتـــشار في أوراس، وعدت الزاب –إذا أخرجنا الأوراس من الزاب– منطقة نفوذ حقيقية لها، أين عرفت انتشارا كبيرا، وكانت وراء حفظ بعض الأثر في حضارة أهل البلاد للبيزنطيين[1]

وبناءا عليه يمكن القول أن البربر لم يمارسوا معتقدات خالصة من التأثيرات الأجنبيـــة والتي نتجت عن التعايش مع الآخر، الأمر الذي ترك بصمته على الحياة الاجتماعية الخاصة بهم في جوانب مختلفة إيجابا وسلبا.

فمن الناحية السياسية وبمنظور الإيجابية يمكن رصد ملامح تجلـــت أواخـــر العهـــد البيزنطي، وقد تمثلت فيما أوردته المصادر بين طيات الأخبار عن مسألة التعايش على خلفية القبول بالمهادنة وأداء الجباية طواعية[2] مع تحالف ضد المسلمين[3].

أضف إلى ذلك تقاسم مناطق النفوذ بحيـــث انقـــسم المجتمـــع الـــزابي إلى فئـــتين رئيستين،فسكن الوافدون المدن والحصون واستقر البربر في الضواحي[4]، وهذا مؤشر على أن لغة أخرى طرأت لتصبغ الحوار غير السلاح، بعد زمن طويل من العداء مع وجود استثناءات في كلتا الحالتين.

ومن خلال ما سبق يمكن الانتقال إلى زاوية رؤية مختلفة، فمن أولى وأكثر الأشياء التي خلقت حالة العداء التحصينات العسكرية، والتي اهتم بها البيزنطيون بشكل مبالغ فيه فعزلوا أنفسهم بها عن الأهالي، وصنفوا كل قاطن خارج حدودهم ضمن الفئة المنبـــوذة لأنهـــم لم يخضعوا لسيطرتهم[5].

وقد عملت سياسات المستعمر على إحداث تغيير في النظام الطبقي للمجتمع وذلـــك من خلال أمرين، الأول تحويل فئة كبيرة من الأحرار إلى عبيد يتم أســـرهم في الحـــروب، وتسخير جزء كبير منهم في عمليات البناء والترميم.

1- أنظر فتح العرب للمغرب، ص28.
2- ابن خلدون، العبر، مج 6، ص125.
3- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص24.
4- ابن خلدون، العبر، مج6، ص126.
5- شنيتي، المرجع السابق، ج1، ص14-16.

والأمر الثاني هو عملية إعادة توزيع الأراضي –المذكورة سابقا– التي رفعت الفئة الممنوحة من طبقة دنيا إلى أخرى عليا، وتحط المسلوبين إلى طبقة أدنى.

وتبقى الإشارة إلى مسألة قد تكون على قدر ليس بالقليل من الأهمية، وهي الخلافات الدينية التي عرفتها بيزنطة وانتقلت إلى بلاد المغرب شاملة مناطق نفوذها ومنها الزاب، لتأخذ منحى سياسي وليس مستبعدا أن تتخذ اتجاها اجتماعيا يتجسد في تصارع الطبقات فيما بينها، أو حتى نشوبها داخل الطبقة الواحدة.

وعلى صعيد الأوضاع الاقتصادية فأن العزلة السياسية تعني التأثير السلبي على اقتصاد الزاب، ذلك أن سيطرة مجموعة معينة على التجارة الخارجية والمعاملات المالية الداخلية، يمنحها امتيازات اجتماعية لا تكون لغيرهم فتجعلهم يرتقون في السلم الاجتماعي على حساب باقي الطبقات.

وأما التعسف في جباية الضرائب –فضلا عن ثقلها– قد يشمل الإيذاء الجسدي، والذي قد يدفع صاحبه إلى هجرة مهنته ويحترف اللصوصية، فتتحول مجموعة ليست بالقليلة من فئة منتجة إلى جماعة ضارة،هذا مع انهيار الحياة المعاشية لأسرهم.

الفصل الثاني

بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى نشوء الدول المستقلة

المبحث الأول: مراحل الفتح الإسلامي لبلاد الزاب

المبحث الثاني: بلاد الزاب في عصر الولاة

المبحث الثالث: بلاد الزاب في عصر الدول المستقلة

المبحث الأول: مراحل الفتح الإسلامي لبلاد الزاب.

إن البحث في الفتح الإسلامي لبلاد الزاب يقود بشكل طبيعي للحديث عن طلائـــع الفتح التي انطلقت من برقة وصولا إلى المنطقة، وذلك لتبين خط سير المسلمين ومعرفة مدى استفادتهم من الخبرات التي اكتسبوها، وكيفية تعاملهم مع سكانها على خلفية ما عرض لهم خلال تقدمهم، وللكشف عن الدور الذي لعبه السكان المحليون في تغيير وتثبيـــت خطـــط العمل سواء كانت عامة أو مرحلية.

فعلى رغم من أن المؤرخين قد أوردوا تواريخ مختلفة لفـــتح برقـــة 21هـــــ/ 641م[1]، 22هـــ/ 642م[2] إلا أن اتفاقهم على أن عمر بن العاص أرسل سرايا إلى برقة وهو لم يفـــتح مصر بعد سنة 21هـــ ثم اتجه بعد ذلك بنفسه إليها وصالح أهلها على الجزية، يمكـــن عـــده اتفاقا على أن فتح بلاد المغرب عموما بدأ سنة21هـــ على يد عقبة بن نافع[3] الذي سيكون له دور ملحوظ في فتح بلاد الزاب فيما بعد، وسيتبين في حينه إذا ما كان قد استفاد مـــن خبراته كونه من أوائل القادة الذين دخلوا بلاد المغرب عموما، وبقيادة عمر بن العاص الذي أدرك أن خضوع الحدود الغربية للنفوذ البيزنطي سيشكل مصدر قلق وخطـــر علـــيهم في الإسكندرية[4].

1- أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي، فتوح الشام، ضبط وتصحيح، عبد اللطيف عبد الرحمن،دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1417هـ، 1997م، ج2، ص72، أنظر أيضا أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر للطباعة والنشر، ط6، بيروت، لبنان، 1415هـ، 1995م، (د ت)، مج2، ص156، و أنظر أيضا جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تقديم وتعليق، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1413هـ، 1992م، ج1، ص93 .

2- أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة الليثي العصفري الملقب شباب، تاريخ خليفة بن خياط ، تح، مصطفى نجيب فواز، حكمت كشلي فواز، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1415هـ، 1995م، ص89،أنظر أيضا ابن الأثير، الكامل في التاريخ،دار صادر، (د ط)، بيروت، 1402هـ،1982م، مج3، ص25، و انظر أيضا أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح، جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، (د ط)، الدار البيضاء، 1418هـ، 1997م، ج1، ص85، ويورد الباحث حسين مؤنس مجموعة من الروايات وينسبها إلى بعض المؤرخين ، والجغرافيين فيذكر أن اليعقوبي حدد 23هـ سنة للفتح، أنظر، فتح العرب للمغرب، ص69-70، لكن الطبعة المتوفرة لدينا يرد فيها فتح الإسكندرية سنة 21هـ ثم فتح برقة بدون تاريخ وبعدها فتح طرابلس سنة 22هـ، أنظر، أبو الحسن البلاذري، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق، رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، (د ط)، بيروت، لبنان، 1398هـ،1978م، ص221، 225، 227 ، وابن عبد الحكم يتطرق للفتح دون تاريخ،أنظر، فتوح مصر والمغرب، تح، على محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، (د ط)، بور سعيد، القاهرة، 1415هـ، 1995م،ص197- 198، وكذلك الأمر بالنسبة لكل من البكري وابن عذارى، أنظر البكري، المصدر السابق، ص4-5 ، ابن عذري، المصدر السابق، ص8.

3- خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص86، ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص197، ابن الأثير، الكامل، مج25، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص8.

4- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص53.

ورغم المدة الطويلة التي استغرقها المسلمون وصولا إلى القيروان لأسباب كثيرة منها ما هو متعلق بطبيعة البلاد السياسية والجغرافية وأخرى ترجع إلى الأوضاع في المشرق، إلا أن عقبة تمكن من بناء أول نقطة ارتكاز للمسلمين في المنطقة وهي القيروان سنة 50هـ/670م[1]، وهذا جل ما تمكن من إنجازه لأنه عزل فلم يتمكن إلى الآن المسلمون من وطأ أرض بلاد الزاب.

وعلى كل حال فإن الخطوة التي قام بها تعد بداية إدارة الدفة في الاتجاه الصحيح، وهو النهج الذي سار عليه خلفه أبو المهاجر دينار(55-62هـ/674-671م)[2]بل وتعمق فيه أكثر حين جعل من الفتح الهدف الأساس بدلا من الغنائم[3]تمهيدا لجعل إفريقية ولاية إسلامية، ومن بين معالم هذه السياسة كسبه كسيلة بن لمزم زعيم قبيلة أوربة البربرية البرنسية إلى صف المسلمين، ومن ورائه قبيلته وكسر التحالف الذي كان بينهم وبين البيزنطيين، وذلك من خلال انتهاج سياسة اللين والمهادنة[4]، والأمر الأهم أنه أول قائد مسلم تطأ أقدامه بلاد المغرب الأوسط أين قام بحملة إلى ميلة وأخرى إلى تلمسان[5].

وإذا كان أبو المهاجر هو أول من دخل المنطقة واحتك بسكانها، فإن عقبة بن نافع أول من دخل بلاد الزاب، فتجمع الروايات أنه اتجه إليها، لكن في ذات الوقت لاتبين ماإذا كانت هدفا أراد فتحه بشكل كلي ونشر الإسلام فيه، فقد حاصر قلعة مجانة، وقاتل أهل باغاية خارج حصنهم حتى هزمهم ثم انتقل إلى المسن وهزم أهلها خارج الحصن[6].

1-ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص223- 224، تأرجحت مرة أخرى روايات المؤرخين حول سنة انطلاق هذه الحملة بين 46هـ/666م أنظر، ابن عبد الحكم، المصدر نفسه، ص222،و أنظر أيضا البكري، المصدر السابق، ص12،و50هـ/670م و كذلك، البلاذري، المصدر السابق، ص229، وأيضا ابن الأثير، الكامل، مج3، ص465، والسلاوي، المرجع السابق، ص134، وقد رجح مؤنس سنة49هـ/669م مبتعدا عن التاريخين إذ يرى أنه من غير المعقول أن يستغرق عقبة كل تلك الفترة الزمنية بين انطلاقه وبناء القيروان عام 50هـ، وقد قام بعملية حسابية لمجموع الفترة التي قضاها في حملته الصحراوية وطريق سيره إلى موقع القيروان، فوجدها لا تتعدى مجتمعة السنة على أقصى تقدير ،وإذا كان الشروع في البناء انطلق سنة 50هـ فالمرجع –حسبه- أن الحملة انطلقت سنة 49هـ، وأن المؤرخين أخطئوا في تحديد التاريخ فبدل 49هـ ذكروا 46هـ،أنظر، فتح العرب للمغرب، ص136- 137، وهو الرأي الذي نرجحه.

2- ابن الأثير، المصدر السابق، مج3، ص466.

3- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص156، 157.

4- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق،ج2، ص217، أنظر خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص139.

5- خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص139.

6- الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص10- 11،

وانطلاقا من هذه النقطة دخل بلاد الزاب بعد أن سأل عن أعظم مدائنها فأخبر أنها أذنة، وقد خاض معركة كبيرة على بعد ثلاثة أميال منها على وادي سهر[1]، ورغم الغنائم الكثيرة التي تمكن من جمعها إلا أن انتصاراته لم تكن حاسمة، وقد أجمع جملة من المؤرخين على أنه يقاتل البيزنطيين إلى أبواب حصونهم لكنه يكره المقام على حصارها فيرحل[2].

ولعل الرواية التي تؤكد على أن أذنة أعظم مدن الزاب، يمكن النظر إليها من زاوية القوة العسكرية المتواجدة بها، والمكونة من الروم والبربر القاطنين بها ومن حولها، وليست بالضرورة التحصينات، خاصة أن حماية البلاد أصبحت تقع على عاتق الأهالي بعد أن أصبحت السلطة عاجزة عن تأدية هذا الدور[3]، وإذا أضفنا عامل السرعة الذي اعتمد عليه عقبة في حملته تتضح-بشكل ما- أسباب عدم دخول عقبة أذنة.

و لم يكن خروجه من الزاب آخر عهده بها بل إن ما قام به فيها وأثناء حملته في المغرب الأقصى وثيق الصلة بعودته إليها مرة أخرى، فالشدة التي اتسم بها في معاملة الأهالي وإساءته معاملة زعيم من زعمائهم كسيلة[4]كانت لابد أن تؤلبهم عليه، ولدى ابن عبد الحكم روايتين الأولى تقول أن جيشا اتجه إلى القيروان وعقبة غائب عنها لكنه هزم، والثانية ابن الكاهنة البربري كان يردم الآبار التي يحفرها عقبة ويخلفها وراءه[5].

ولما كان من المستبعد ظهور ابن الكاهنة في هذه المرحلة على مسرح الأحداث، فإن ما أورده ابن عبد الحكم ينبئ بأن الأرض تتحرك تحت أقدام المسلمين، ومن غير المستبعد أن يكون كسيلة قد دبر لعقبة شيئا ما منذ البداية من خلال اتصاله بأهله، ما دام لا يستقيم أنه من كان يردم الآبار لأنه سجين في جيش عقبة[6].

1- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص36، ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص24.
2- الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص10، 11، 12، المالكي، المصدر السابق،ج1، ص36، 37، ابن الأثير، الكامل، مج 4، ص105، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص24.
3- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص20.
4- ابن الأثير، الكامل، مج4،ص107، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص29.
5- أنظر المصدر السابق، ص226.
6- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص185- 187.

ومع قرب الحملة من نهايتها بدأت تتجلى نتائجها فقد كانت رحلة العودة سـريعة، فربما أحس عقبة بما يدو ويدبر فقام بصرف الجيش أفواجا عند وصوله إلى طبنة معتقدا أن لا خطر في المنطقة التي سبق وأن حارب أهلها[1]، على أن العودة إلى رواية ابن عبـد الحكـم الأولى –السالفة الذكر– فإن هذه الأنباء المقلقة قد وصلت عقبة، مما اضـطره إلى إرسـال كتائب من الجيش لحماية القيروان، وآثر هو التعريج على تهوذة وبادس[2].

وإذا تم التسليم بأن الهجوم على القيروان قد تم في هذه الفترة، وأن الهدف منه تشتيت جيش عقبة لتسهيل المواجهة، فهل من الممكن أن يرسل قائد عسكري أفواجـا إلى الموطـأ الحقيقي الوحيد للمسلمين في البلاد؟ ويتجه هو إلى موضع آخر ليرى ما يحتاج إليه من قوة، أم أن أنباء مقلقة أخرى قد وردته من الزاب؟ فذهب ليتبين ماهيتها، وهـل رأى في أمـر التعريج على الزاب أنه الأولى؟

وبالنظر إلى المعطيات السابقة يمكن القول أن عقبة صرف الجيش على هـذا النحـو ليخفف حركته خاصة أن هناك رواية تقول أنهم عانوا العطش الشديد[3]، وبعد أن تأكد أنه دخل منطقة آمنة، وأما تعريجه على الزاب فيقود إلى أمرين الأول أن عقبـة أدرك خطـورة المنطقة –بعد أن هدأت ثورة غضبه بسبب عزله الغير مبرر– وأهميتها بالنسبة للقيروان بمعنى أنه أدرك أن فتوحه لم نكن تامة، والأمر الآخر هو أن نصائح أبو المهاجر الذي كان أسـيرا لديه قد أتت ثمارها وهو ما يمكن استنتاجه من عبارة"عاجله قبل أن يجتمـع إليـه أمـره"[4] ويقصد هنا كسيلة.

ونتيجة لسياسات عقبة أجمع البربر والروم أمرهم وأخذوا بالأسباب وتهيـأت لهـم الظروف في تهوذة، فقضوا عليه مع أصحابه إلا عدد قليل افتداهم صاحب قفصة[5]، وكـان

1- ابن الأثير، الكامل، مج4، ص106، أنظر حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص197- 198.
2- السيد عبد العزيز، المرجع السابق،ج2، ص227- 228.
3- ابن الأثير، الكامل، مج 4، ص106.
4- محمد شيت خطاب، عقبة بن نافع الفهري،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط5، بيروت، لبنان1397هـ،1977م، ص146، 147
5- ابن الأثير، الكامل، مج4، ص108.

من أسوء نتائج هذه المعركة خروج المسلمين ليس فقط من بلاد الزاب بل من بلاد المغــرب كاملة، بعد ما يربوا من أربعين سنة من جهود الفتح[1].

ورغم ذلك فقد خلفت حملة عقبة أمورا عدة استفاد منها المسلمون في المرحلة الــتي أعقبت وفاته، فقد اتخذت الفتوح منحى آخر بعد أن أرسل عبد الملك بن مروان(65-86هـــ/685-705م)، المدد من الشام وأضاف إليه أموال مصر إلى زهير بن قيس البلــوي، والــذي انطلق سنة 69هـــ/688م[2].

وأما فيما يتعلق بأهم معالم الحملة فهي معركة ممس[3]، فما إن وصلت أنبـــاء حملــت المسلمين إلى مسامع كسيلة حتى انسحب من القيروان إلى ممس أين لحق به زهـــير بجيـــشه فهزمه وأرداه قتيلا[4]،وأما المالكي فيذكر أن زهير أقام في القيروان وكسيلة هو من زحـــف إليها بجيش البربر والروم، فلما رأى القائد العربي ذلك هادن الروم لتوافق الحملة مع عيـــد الأضحى و أيام يعظمونها –كونهم مسيحيين– فقبلوا الهدنة[5].

ونظرا للمعطيات التي كانت سائدة، يبدو أن الهدف من هذه الخطـــوة كـــان فـــك التحالف المنعقد بين الروم والبربر، ولكن في نفس الوقت أدرك الـــروم أن هـــذا الاتفـــاق سيكون في صالحهم أيا كان الخاسر، ذلك أنهم سيتمكنون من استعادة مناطق نفـــوذهم[6]، ومع ذلك فإن هذا التصرف بين أن القائد المسلم أنه لا يملك القوة اللازمة للقـــضاء علـــى

1- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ج2، ص232
2- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص46، ابن الأثير، الكامل، مج4، ص108، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص29، رغم وجود روايات أخرى ، فخليفة بن خياط و ابن عبد الحكم ذكرا أن الحملة انطلقت سنة 64هـ/683م، أنظر ابن خياط، المصدر السابق، ص 157، ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص228،والرقيق ذكر أنها انطلقت سنة 67هـ/686م، أنظر الرقيق، المصدر السابق، ص49 ، فعن سنة 64هـ فهي فترة ولاية مروان بن الحكم(64-65هـ/683-784م) والحملة انطلقت في ولاية عبد الملك بن مروان(65-86هـ/684-705م)، كما أنها السنة التي دخل فيها كسيلة القيروان، المالكي، المصدر السابق، ج1، ص44، وأما فيما يتعلق بسنة 67هـ فمن المعروف أن الخلافة كانت مقسمة على أرض بين عبد الله بن الزبير بن العوام(64-73هـ/683-692م) –الذي بسط نفوذه على مكة والمدينة والبصرة والكوفة- وبين عبد الملك بن مروان،ابن تغري بردي، المصدر السابق، ص231، 235، وبالرغم من تأزم الأوضاع السياسية في المشرق إلا أن الخلافة أصبحت تعد بلاد المغرب مصرا إسلاميا وجبت استعادته، حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص217- 218.
3- ممس : هي ممس عند المالكي، ج1، ص47، وممش عند النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح حسين نصار، عبد العزيز الأهواني، المكتبة العربية، (د ط)، القاهرة، 1403هـ، 1983م،ج24، ص33.
4- الرقيق، المصدر السابق، ص50- 51.
5- أنظر المصدر السابق، ج1، ص45.
6- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص222- 223.

التكتل الذي قضى على عقبة وأصحابه، وهي إحدى النقاط الإيجابية التي أفاد منها المسلمون من معركة تهوذة.

وكنتيجة لهذه المعركة تمكن المسلمون من تحقيق أمور عدة منها الانتقام لمقتل عقبة ومن معه، القضاء على إحدى القوى الثلاث الرئيسية المقاومة في المنطقة وهم البرانس مع زرع الخوف في باقي الأطراف، إذ هزت ممس البربر كما هزت تهوذة المسلمين[1]، وهذا بالتأكيد يعني إزاحة عقبة كبيرة أمام العودة إلى بلاد الزاب و فتحها.

وإذا كان موت عقبة قد نبه المسلمين إلى قوة البرانس، فإن موت زهير بن قيس على يد الروم في أحواز برقة[2] ذكرهم بقوة الروم التي لا تزال فاعلة[3]، فجاءت حملة سنة 76هـ/695م بقيادة حسان بن النعمان الغساني، وهو قائد شامي لم يسبق له الدخول إلى بلاد المغرب، وإذا كان قد اعتقد أن سلفه قد قضى على قوة البربر و لم يبق أمامه غير القضاء على البيزنطيين، فإن حملته على الأوراس قد أكدت له عكس ذلك.

فما إن سمعت الكاهنة بقدومه حتى خرجت من الجبال واتجهت إلى حصن باغاية وقامت بتخريبه ضانة أن المسلمين سيتحصنون به، لكن ذلك لم يحدث والتقوا على وادي مسكيانة[4] في معركة دارة فيها الدائرة على المسلمين، فانسحبوا إلى ما وراء قابس[5] مع ما تكبدوه من خسائر في الأرواح وعدد من الأسرى الذين قامت الكاهنة بإطلاق سراحهم، غير واحد اسمه خالد بن يزيد الذي استبقته عندها[6] لأهداف ستتضح فيما يبدو لاحقا.

وفيما يتعلق بهزيمة المسلمين فالظاهر أن ورائها عوامل مختلفة منها، أنهم دخلوا هذه المواجهة وهم بعد مجهدين من حملة الشمال التي قادها حسان ضد الروم، بالإضافة إلى الندية التي واجههم بها البربر في القتال، فهم بدو مثلهم يجيدون النزال في المساحات المفتوحة،

1- شكري فيصل، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية، دار العلم للملايين، ط6، بيروت، لبنان، 1982م، ص172
2- ابن الأثير، الكامل، مج4، ص109- 110.
3- حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص232.
4- وادي مسكيانة: مسكيانة قرية صغيرة بالقرب من باغاية، الحميري، المصدر السابق، ص558.
5- قابس: من مدن إفريقية، تعد إحدى مدن بلاد الجريد، بينها بين القيروان أربعة مراحل، الحميري، المصدر السابق، ص450.
6- الرقيق، المصدر السابق، ص 58.

وهناك مسألة أخرى قد تكون على قدر كبير من الأهمية وهي القائد، إذ من الوارد أن يكون المسلمون قد استخفوا بجيش تقوده امرأة[1]، وهو أمر وارد بين الجنود.

ومن خلال الروايات التي تقول أن حسان ما إن قفل راجعا حتى بعث بأنبائه إلى الخليفة[2]، يمكن قراءتها على أنها إصرار على إتمام الفتح خاصة أن البلاد لم تخرج كلية منه، فقد استخلف على القيروان شخصا سمته المصادر"أبا صالح"[3]، وقد استغل فترة انتظار المدد من الخلافة بتقصي أخبار الكاهنة عن طريق الأسير[4].

وقد حدد كل من ابن الأثير وابن عذارى توقيت المراسلات بعد وصول المدد من الخليفة[5]، وهي الفترة التي تلت تخريب الكاهنة لإفريقية لاعتقادها أن المسلمين يطلبون العمران والذهب والفضة[6]، لكنها ومن حيث لا تقصد خدمت حسان أكبر خدمة.

ولما تهيأت الأسباب للمسلمين زحفوا على إفريقية ليجنوا نتائج ما قامت به زعيمة البربر، فقد بدأ البربر يتوافدون على حسان طالبين الإغاثة[7] ، وبعد أن استيقنت هلاكها برز سبب احتفاظها بالأسير المسلم، فقد طلبت منه أن يستأمن لولديها عند حسان وهو ما كان[8]، ليزحف بعد ذلك الطرفان ويشتبكا في معركة باتت نتائجها معروفة بعد كل تلك المقدمات، فقد قتلت الكاهنة واستأمن البربر من القائد المسلم الذي وافق على ذلك ، لكن في المقابل طالب بدخول اثني عشر ألف محارب من البربر في جيشه[9].

وبموت الكاهنة سنة 82هـ/701م[10] تسقط آخر القلاع البربرية التي تتحصن بها بلاد الزاب، وقد اتسمت هذه المرحلة بالتخطيط والمبادرة والإصرار على النجاح، وتجمع المصادر

1- عبد العزيز اللميلم، حسان بن النعمان الغساني ودوره في فتح بلاد المغرب، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1405هـ، 1985م، ص120،أنظر أيضا محمد شيت خطاب، قادة الفتح العربي، دار الفكر، ط7، (د م ط)، 1404هـ، 1984م، ج1، ص185،حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، ص284.
2- المالكي، المصدر السابق، ج1 ،ص 21.
3- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص228.
4- ابن عبد الحكم، المصدر نفسه، 228، 229، المالكي، المصدر السابق، ج1، ص52- 53.
5- أنظر الكامل، مج4، ص371، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص36-37.
6- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص36.
7- الرقيق، المصدر السابق، ص62.
8- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص54- 55.
9- ابن الأثير، الكامل، مج4، ص372.
10- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص38.

على أن الأوضاع قد هدأت بعد مقتل الكاهنة، فمن البربر من أسلم ومنهم من أقام علـــى دينه ودفع الجزية[1]، فبعد تفريغه لبلاد الزاب من الجنود سهل عليه نشر الإسلام تدريجيا.

وإذا كانت الفتوحات ستمتد لتشمل المناطق الأخرى من بلاد المغرب، وتنتقـــل إلى الأندلس قبل تمامها في المغرب، فمن الممكن اعتبار بلاد الزاب مفتوحة منذ عهد حسان بن النعمان، لتدخل البلاد مرحلة جديدة ابتداء من ولاية خلفه.

1- الرقيق، المصدر السابق،ص64، المالكي، المصدر السابق، ج1، ص56.

المبحث الثاني: بلاد الزاب في عصر الولاة.

لقد اعتبر المؤرخون ولاية موسى بن نصير خاتمة الفتوح الإسلامية لبلاد المغرب عموما، ليبدأ بعد ذلك زمن التنظيم الإداري للولاية.

وإذا تم استقصاء ملامح هذا التنظيم ببلاد الزاب، يتبين أن المنطقة غائبة –فيما هو متاح من المصادر– في الفترة الممتدة من ما قبل(97هـ/715م)، وإلى ما بعد(122هـ/739م) زمن اندلاع ثورات الخوارج، وبالتالي فإن ما يمكن تلمسه من معالم إدارية يستخلص من نتائج تلك التنظيمات والسياسات والمتجلية خاصة في الثورات.

ومن خلال ما أورده المؤرخون يتبين أن ولاة هذه الفترة تسببوا في كثير من الأذى لهيبة الخلافة الإسلامية، وذلك بسبب ما انتهجوه من سياسات في طريقة إدارتهم للبلاد، والتي قد يكون للخلفاء أنفسهم دور ما فيها بشكل مباشر أو غير مباشر، متجسدة بشكل أساسي في نقل الصراع الذي كان قائما بين القيسية و اليمنية في المشرق إلى مسرح الأحداث بالمغرب.

ففي حين عد بشر بن صفوان (103-115هـ/721-733م) أول الولاة الذين قربوا أهل العصبية واعتمدوا عليهم في إدارة البلاد[1]، فإنه بذلك قد فسح المجال للصراع ليأخذ منحاه التصاعدي، إلى أن بلغ حد تصفية الأسرات الكبيرة ذات الباع الطويل في الفتوح ، كآل حديج وآل دينار وآل عقبة وآل نصير[2].

وإلى ذلك يمكن ملاحظة البوادر الأولى للعب على أوتار العصبية القبلية، حتى بين البربر أنفسهم مع ابن نصير عندما قرب فريقا منه وجعلهم موالي له، على أنه هناك من رأى في هذا الموقف تقريبا للبربر عامة وإشراكا لهم في أعمال الإدارة[3]– والتي شملت المغرب الأوسط–.

1- موسى لقبال، تاريخ المغرب الإسلامي، دار هومة، الجزائر، 2002م، ص117.

2- موسى لقبال،المرجع نفسه، ص122-123، 139، ابن عميرة، المرجع السابق، ص62-63.

3- محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي وحضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس (160-296هـ) ، دار القلم للنشر والتوزيع، ط3، الكويت، 1408هـ، 1987م، ص43-44.

فيما يرى اتجاه آخر أنه غفل أو أغفل دور البربر البتر في الفتح وســـواهم بـــالبرانس، مقربا بعض القبائل على حساب الأخرى[1]، لكن المعروف تاريخيا أنه ليست كـــل القبائـــل البترية ساهمت في العملية، إذ يشمل هذا الرأي كل بتر المناطق المفتوحة.

في حين يمكن أن يكون للمسألة زاوية رؤية ثالثة، وهي نظرة السيد العربي الذي يعطي لنفسه أحقية السيادة، ويجعل من باقي الأجناس تابعين وموالي، وما يعزز هذا الاتجـــاه هـــو اعتبار اليمنيين لأنفسهم في مراحل لاحقة أصحاب الأرض وأهل البلاد، واعتبروا القيـــسيين هم الدخلاء.

وقد تركت هذه المسألة الأثر العميق في السياسة المنتهجة من قبل الـــولاة المتعـــاقبين بالنظر إلى انتمائهم القيسي أو اليمني، وعلى الرغم من أن البربر كانوا هم المتأثر الأول بهـــا، إلا أن المصادر لا تسعف الباحث في معرفة ما إذا كان لهم انخراط مباشر في هذا الـــصراع، حتى مع كون فرق من البتر حرس للولاة[2].

أما عن حيثيات الصراع ذاته فهي مرتبطة من خلال المصادر بأعمال الولاة الانتقاميـــة من الجانبين، وتغيب أي إشارات انعكاساتها ونتائجها على بلاد الزاب حيث يبدو الموقـــف ضبابيا، وما قد يستنتج منه هو مسألة جيشا عكاشة بن أيوب وعبد الواحد اللذان انطلقا من الزاب[3]فما كان بإمكانهما الخروج من المنطقة دون تأييد-على الأقل- فئة من أهلها، ومـــا كان لهذا الدعم أن يتحقق لو لم تعاني من سياسات الولاة.

وقد امتد هذا الصراع حتى زمن انتقال الحكم إلى البيت الفهري، والذي اشتعل بـــين أفراد هذه الأسرة، فكانوا السبب في دخول أطراف جديـــدة في الـــصراع هـــي القبائـــل الأوراسية[4]، وهذا الدخول يعطي إشارة غامضة ويطرح تساؤلا متجددا عـــن دور الإدارة المحلية للزاب في هذه المسألة.

1- حين مؤنس، فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (711-756م) ، دار السعودية للنشر والتوزيع،ط2، جدة، 1405هـ، 1985م، ص147، 156.
2- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص242.
3- أنظر الصفحات التالية.
4- الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص123-139، ابن خلدون، العبر، مج6، ص131.

ومن جانب آخر من كان عامل الزاب في هذه الفترة؟ أم أنها كانت خارجة عن سيطرة الأموية؟ أو كان ضعيفا لدرجة مكنت الثائرين من جمع كل تلك الأعداد؟ مع العلم أن الأحداث اللاحقة تثبت بشكل جلي الاهتمام الكبير للولاة العباسيين بمن يعين عاملا عليها.

ومن جهة أخرى إذا تم البحث عن بدايات التنظيم الإداري لبلاد المغرب عامة، يظهر حسان بن النعمان كأول من بدأ العملية[1]، وقام من بعده موسى بن نصير بالاعتماد على مجموعة من العمال الذين عينهم على رأس الأقاليم الكبرى لتسيير الأمور[2].

فهل عين على الزاب في هذه الفترة عاملا؟ إذ لا يرد أي ذكر لوجوده طوال حكم الأمويين، وهل عدم ذكره يعود إلى أن المنطقة لم تشكل لهم أي خطر فعدة إما تابعة للقيروان أو أن عاملها كان قليل الشأن؟ حتى ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي(123-129هـ/740-746م)، أم أن المؤرخين ولسبب ما أغفلوا ذكره فعقبة لاحظ العكس زمن الفتح؟

وأما عن سياسة الأمويين الضريبية فالمعلومات المتعلقة بها عامة ولا تخص بلاد الزاب بالتحديد، ومنها اعتبار موسى بن نصير الأفارقة الداخلين إلى الإسلام موالي شأنهم شأن الروم، فغنمت أراضيهم وأموالهم[3].

وتبعه يزيد بن أبي مسلم(102هـ/720م) حين أخمس موالي موسى، ثم جعلهم حرسه وبطانته هو الآخر[4]، أما السابقة فهي تلك التي وقعت زمن عبيد الله بن الحبحاب حين خمس عامله على طنجة عامة البربر المسلمين[5].

ومن جانب آخر أوجد العرب تنظيمات خدمتهم منذ البداية، تمثلت أساسا في تخليهم عن فكرة أن يكون الجيش عربيا خالصا كما كان الوضع في المشرق، فأدمجوا الآلاف

3- حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص45.
2-الرقيق، المصدر السابق، ص76، 108، ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص51.
3حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص147.
4- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص242.
5- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص52.

وبشكل رسمي منذ زمن حسان بن النعمان، ليتمكنوا في عهد موسى بن نصير بفضل هـــذا الدمج من فتح الأندلس[1].

وأما الأمر الفارق بين الأمويين والعباسيين هو ظهور عاملهم على الزاب منذ أن حل بالمغرب أول ولاتهم محمد بن الأشعث الخزاعي(146-148هـــ/763-765م) والأغلـــب بـــن سالم(148-150هـــ/765-767م) على التوالي، وكان سبب بروز المنطقة زمن العباسيين هـــو الدور الذي لعبته في الثورات التي قامت ضدهم، وهو الأمر الذي سمـــح بظهـــور بعـــض الجوانب الإدارية والتنظيمية لهذا الإقليم، من خلال تعامل السلطة مع الثورات.

وذلك بمساهمة الزاب وعاملها بشكل بارز في ترجيح كفة النصر لصالح الخلافة، فهذا العامل عادة ما يكون من الشخصيات ذات الباع الطويل في الحرب والـــسياسة، كمـــا أن أحداث الثورات ستبين أنه يكون خلفا لولاة المغرب بعد وفاتهم إلى حين إرسال والي جديد أو تثبيتهم.

وتتمتع الأقاليم بصفة عامة بنفس صلاحيات الوالي المدنية والعسكرية، ولكن بصورة مصغرة لا تتعدى عمالته، وذلك لاشتمال الإقليم على بيت للمال وظهور الاختـــصاصات العسكرية لمواجهة الخوارج.[2]

وقد كان للضغوطات السياسية والاقتصادية التي مارسها ولاة المغرب على الـــسكان دورا بارزا في خلق جو مشحون آيل للانفجار في عموم البلاد، وإزاء هذا الوضع استغل الخوارج القادمون من المشرق الفرصة لبث أفكارهم الثورية، والعمل على تغذيتها بـــشكل أدى في مسار طبيعي إلى ثورة البربر على الإدارة الأموية.

ولئن كان الانفجار الأول لهذه الثورات في المغرب الأقصى، بقيادة ودعم من الصفرية سنة 122 هـــ/739 م، أين أطاحت برؤوس ثلاثة ولاة أمويين إما عزلا أو قتلا[3]، ومع غياب

1- حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 147، 156.
2- نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص 116.
3- أنظر على سبيل المثال، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص51 – 55.

أي ذكر لبلاد الزاب في هذه الفترة فان السؤال المطروح، هل عظم الأحداث التي شـــهدها المغرب الأقصى بنتائجها على العرب جعل المؤرخين يتغاضون عن ذكر أي أحداث أخرى، لا تبدو في مستوى ما حدث هناك؟

ذلك أن ظهور زعيمان بربريان بوزن أبو يوسف الهواري وعكاشة بن أيوب الفزاري، على مسرح أحداث الزاب بجيش وصف بالجمع العظيم[1]، منطلقين من الزاب ما يعـــني أن المنطقة كانت مقر تجمع واستعداد للسير نحو القيروان[2]، يطرح تساؤلا حول المدى الـــزمني الذي تمكن خلاله الزعيمان من جمع محاربيهم، على اعتبار أن المصادر تقول إن حنظلـــة لم يمكث إلا يسيرا حتى زحفا إليه[3].

فهل من المحتمل أن يكون الجيش قد إلتأم من الفترة الممتدة بين مقتل كلثوم بن عياض (123هـــ/740م) وقدوم حنظلة؟، وعلى العموم فان بلاد الزاب برزت مشاركتها في أحداث الثورات بدءا من سنة 124هـــ/741م بدعمها لهجوم على القيروان، دون أن تكون مـــسرحا مباشرا لعمليات عسكرية.

أما على صعيد نتائج هذه المشاركة فقد أدت إلى مقتل الزعيمان البربريـــان بعـــد أن حاربا على جبهتين منفصلتين[4]، وعقب ذلك تدخل الزاب في طور الغموض لمـــدة ثـــلاث سنوات(126 – 129هـــ/743 – 746م) تمكن خلالها (127هـــ/744م) عبد الـــرحمن بـــن حبيب الفهري من الاستيلاء على ولاية المغرب من يد حنظلة آخر ولاة بني أمية الفعلـــيين على بلاد المغرب الإسلامي.

وقد كان لهذا الاستيلاء الفضل في عودة الزاب إلى دائرة الأحداث، ذلك أن الصراع على السلطة نشب داخل الأسرة الفهرية، لكن في مرحلة متقدمة من الصراع أي بدءا مـــن

1- الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 114 – 115، النويري، المصدر السابق،ج24، ص 24.
2- حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 176.
3- الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص 114، ابن الأثير، المصدر السابق، مج5، ص 193.
4 - الرقيق، المصدر السابق، ص115، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص58، النويري، المصدر السابق،ج24، ص62، ابن الأثير، الكامل، مج5، ص 315 – 316.

سنة (138هـــ/755م)[1]، عندما استنجد أحد أفراد هذه الأسرة بقبيلة ورفجومة النفزية القاطنة بالأوراس.

وحول نسبة هذه القبيلة إلى الخوارج الصفرية ثار نقاش لدى الباحثين الـــذين نفـــوا الأمر، إذ استند أحدهم إلى ما أورده المؤرخون نافيا ـــ حسبه ـــ ما اعتمدته أغلب المراجع التي تنسبها إلى الصفرية، مؤكدا على أن كل ما يوجد من إشارات في المصادر هو ما ذكره ابن عذارى بعد موت عاصم وحبيب، "تغلب على إفريقية بعض القبائل الصفرية ...فدخلوا القيروان ... وسامت ورفجومة أهل القيروان سوء العذاب"[2].

ويفسر هذه المقولة على أنها تواجد للصفرية إلى جانب ورفجومة، وقد استثنى عبـــارة "عاصم بن جميل الصفري" عند المالكي مع عدم اقتناعه بأصالة الكلمة في المـــصدر كونهـــا وضعت بين قوسين[3]، لكن الطبعة المتوفرة لدينا يغيب فيها وصفه بالصفري وهي غير الطبعة المعتمدة من قبل الباحث[4].

وينحى باحث آخر منحاه بالتأكيد على غياب أي دليل على انتـــساب ورفجومـــة للصفرية عند المؤرخين، باستثناء المؤرخ المتقدم السلاوي الذي يذكر أنه وصفها بـــالخوارج الصفرية[5]، ومرة أخرى فان جل ما يذكره هذا المؤرخ في الطبعة المتاحـــة أن "ورفجومـــة إحدى بطون نفزا بن لوي ... شايعه... عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي ويزيـــد بـــن سكوم الولهاصي وكانا على رأي الإباضية"[6]، وتؤيد باقي المصادر ما قاله عن غياب لنـــسبة القبيلة إلى الصفرية[7].

1- السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق،ج2، ص 337.
2- ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص 85.
3- ابن عميرة، المرجع السابق، ص 85، أنظر على سبيل المثال، السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق،ج1، ص 337.
4- المالكي، المصدر السابق،ج1، ص 171.
5- رفعت فوزي عبد المطلب، المرجع السابق، ص 130.
6- السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص 178.
7- الرقيق، المصدر السابق،ص139، النويري، المصدر السابق، ص 70، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص70، ابن خلدون، العبر، مج6، ص131.

وإضافة إلى ذلك يرى هذا الباحث أن العداء كان مستحكما بـين أهـل القـيروان والخوارج الصفرية، وما كان لهم أن يعينوا ورفجومة على دخول القـيروان إلا إذا كـانوا يعلمون أنهم ليسوا منهم[1].

واللافت في الأمر أن هذه القبيلة رغم نصرتها للملتجئين إليها إلا أنها تمكنت في نهايـة المطاف، من السيطرة على القيروان بقيادة زعيمها عاصم بن جميل الورفجومي ويختفي ذكر الفهريين على مصرح الأحداث[2].

ومجمل ما دار في هذا الصراع داخل الأسرة الفهرية، وبعد عشر سنوات من اسـتيلاء عبد الرحمن بن أبي عبيده بن عقبة بن نافع على افريقية، أن عبد الرحمن تعرض لعملية اغتيال على يد أخويه إلياس وعبد الوارث سنة (137 هـ /754م)، لتنشب المعارك بعد ذلك بينهم وبين حبيب بن عبد الرحمن، والتي مكنت الأخير من الوصول إلى الحكم بعد مقتل إليـاس ولجوء عبد الوارث إلى ورفجومة.

وقد تمكنت هذه القبيلة من دخول القيروان بما اجتمع لديها من خوارج، وقـد لجـأ حبيب هو الآخر إلى الأوراس أين وجد مناصرة أخوال أبيه، لكنه قتل في نهاية المطاف سـنة 140هـ/757م[3]، واللافت للانتباه هو غياب أي ذكر لعبد الوارث اللاجئ إلى ورفجومة منذ رفض عاصم بن جميل تسليمه إلى حبيب.

ومن خلال هذه الوقائع بدأ يتضح جليا أن بلاد الزاب أخذت ترسم ملامح الأحداث السياسية لبلاد المغرب أو على الأقل القسم الشرقي منه، ذلك بالرغم من تمكـن إباضـية طرابلس من إخراج ورفجومة من القيروان، بمساعدة من أهلها بعدما لاقوه علـى أيـدي الورفجوميين[4] وسيطرتها مؤقتا على عاصمة الولاية.

1- رفعت فوزي، المرجع السابق، ص 130.
2- الرقيق، المصدر السابق، ص139 – 141، ابن عذارى، المصدر السابق، ص70، ابن الأثير، المصدر السابق، مج5، ص315 – 316.
3- الرقيق، المصدر السابق، ص123-141، ابن عذارى، المصدر السابق، ص69-70، النويري، المصدر السابق،ج24، ص68-71، ابن خلدون، العبر، مج5، ص131، ابن الأثير، الكامل، مج5، ص331-316.
4- ابن عذارى، المصدر السابق، ص71، ابن الأثير، الكامل، مج5، ص317.

وأثناء تلك الأحداث الظاهر أن نفوذ العرب قد تقلص ليقتصر على جالية تقيم على الطاعة في نواحي طبنة[1]، لتتدخل الخلافة العباسية في محاولة تهدف لاسترجاع البلاد بإرسال جيش بقيادة والي جديد، هو محمد بن الأشعث الخزاعي الذي وصل إلى القيروان سنة 144هـ/761م[2].

وقد قام هذا الوالي بترتيب شؤون ما تبقى في يد الخلافة من مناطق، منها تعيين الأغلب بن سالم بن عقال التميمي واليا على الزاب[3]، وتعيين شخصية كهذه على إقليم الزاب يبين أهمية المنطقة في حسابات الخلافة الجديدة، فقد عدة من قبلهم الدرع الواقي لإفريقية[4].

ولكن الوضع كان يتطلب أكثر من ذلك، فالعصبية القبلية التي اتقدت من جديد بين اليمنية والقيسية أودت بحياة القائدين على التوالي[5]، لتضطر الخلافة أمام هذا الوضع الخطير إلى إرسال والي آخر موصوف بقوة الألف رجل عمر بن حفص بن قبيصة(150-154هـ/767-770م)، للسيطرة على الموقف وهو ما كان حيث استطاع في ظرف ثلاث سنوات من إعادة بعض الهدوء إلى إفريقية.

واستنادا إلى النتائج التي حققها هزارمرد أمره الخليفة بالقيام بالخطوة التالية، وهي تحصين الزاب للانطلاق غربا سعيا وراء استرجاع ما ضاع، ولكن الأمر لم يمض بسلام فما إن خرج الوالي إلى طبنة حتى انتقض بربر إفريقية وطرابلس وتوجهوا لحصار طبنة[6].

وحول هذا الحصار انقسمت آراء الباحثين إلى اتجاهين، رأى الأول فيه أن الخوارج خططوا لهذا التحالف، وهو ما يبررون به اجتماعهم في وقت واحد حول طبنة[7]، وأما الثاني

1- حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص186.
2- ابن عذارى، المصدر السابق، ص72، ابن الأثير، الكامل، مج5، ص317.
3- ابن خلدون، العبر، مج6، 132، النويري، المصدر السابق،ج24، ص76.
4- محمد الطالبي، الدولة الأغلبية184-296هـ/800-909م التاريخ السياسي، تح المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت ، لبنان، 1985م، ص85.
5- ابن عذارى، المصدر السابق، ص72-73، 75، ابن الأثير، الكامل، مج5، ص586-587، النويري، المصدر السابق،ج24، ص78، أنظر أيضا السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص346، بوبة مجاني، أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2003م، ص67.
6- النويري، المصدر السابق،ج24، ص79-80، ابن الأثير، الكامل، مج5، ص598.
7- موسى لقبال، تاريخ المغرب الإسلامي، ص198، السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص351.

ورغم اتفاقه مع الأول في إدراك الإباضية والصفرية لمغزى تحصين طبنة -وهو حربهم-، إلا أنه يرى أنهم لم يتفقوا على خطة محددة في العمل مما تسبب في هزيمتـــهم رغـــم أعـــدادهم الكبيرة[1].

وبالعودة إلى تحليل بعض المعطيات يتبين أن أبا قرة كان مجهـــزا ومـــستعدا للـــهجوم انطلاقا من تلمسان، على الأقل منذ زمن الأغلب، وإباضية تاهرت كانوا يتحينون الفرصـــة وقد واتتهم عند استيلاءهم على القيروان، لكنهم قمعوا بشدة فراحوا يـــستعدون للانتقـــام والسيطرة.

وهذا يقودنا إلى أن الجو كان مشحونا ومهيأ، وقول بعض الباحثين أنهم اتفقوا علـــى محاصرة عمر طبنة قد يكون فيه نظر، ذلك أن مجريات الحصار ذاتها تشكك في الأمر —كما سيتضح-، بالإضافة إلى أن المصادر لا تعطي إشارة إلى أن الاجتماع جاء باتفـــاق وتـــدبير مسبق، فالخطوة التي أقدم عليها عمر هي التي حركتهم-لما تشكله عليهم- فقد يكون بذلك الأمر تحصيل حاصل.

وعلى ذات الصعيد ترد عبارة لدى صاحب الاستقصا يقول فيها "تسامعت به خوارج المغرب فانتقضوا من كل ناحية"[2]، تسامعوا بثورة طرابلس ومسيرهم إلى طبنة، ودعما لهـــذا الاتجاه وانطلاقا من المعطيات التي أوردها المؤرخون، حول أعداد الجيوش والتي هي كالتالي:

1- أبو قرة الصفري أربعون ألفا.
2- ابن رستم الإباضي خمسة عشر ألفا.
3- أبو حاتم الإباضي عدد كثير.
4- عاصم السدراتي الإباضي ستة آلاف.
5- المسور الزناتي الإباضي عشرة آلاف.
6- ابن سكريد الصنهاجي الصفري ألفان.

1- رفعت فوزي، المرجع السابق، ص165.
2- السلاوي، المرجع السابق، ج1، ص186.

وجماعة غير هؤلاء[1]، والقبائل المكونة لهذه الجيوش هي بني يفرن من زناتة، لماية، لواتة، نفزاوة، مغيلة[2].

فهل من الممكن القول أن المعلومات المتعلقة بحصار طبنة تنقصها الدقة؟ وهل من المحتمل أن يكون جيش أبي قرة هو الجيش الوحيد الذي حاصر عمر؟ وهل من المعقول أن تكون باقي الجيوش باستثناء جيش ابن رستم ليست بتلك الأهمية؟ بما يفسر انسحابها بعد انسحاب أبي قرة؟

أم هل من المحتمل أن يكون عمر قد أعمل الحيلة مع كل الجيوش لكنها لم تنجح مع ابن رستم، ولذلك بعث بجيش لمحاربته؟ أو أن الجيشين المحاصرين فعليا هما جيشا أبو قرة وابن رستم، فأعمل الحيلة مع الأول وحارب الثاني؟ وهل لمقالة ابن خلدون حول غياب شرط القبيل الواحد مع توافر شرط العصبية الأقوى، له دور ما في فشل البربر؟

وعلى كل حال فقد انفك الحصار على طبنة، رغم معاودة أبي قرة الكرة بعد سماعه بخروج ابن حفص إلى القيروان، أين رده المهنأ بن المخارق الطائي –خليفة عمر على الزاب[3].

هذا من جانب ومن الجانب الآخر قتل ابن حفص في حصار القيروان ودخلها أبو حاتم الإباضي سنة 154هـ/770م[4]، لكن يزيد بن حاتم بن قبيصة المهلب(155-171هـ/771-787م) تمكن من قتله ودخول القيروان أواخر سنة 155هـ/171م، وساهم والي الزاب ابن المخارق في القضاء على عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن الذي ناصر أبا حاتم[5] سنة 156هـ/772م[6].

1- الرقيق، المصدر السابق، ص143، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص75، النويري، المصدر السابق،ج24، 80.
2- ابن خلدون، العبر، مج6، ص132.
3- الرقيق، المصدر السابق، ص143.
4-ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص77.
5- الرقيق، المصدر السابق، ص161.
6- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص79.

ويبدو أن آخر ثورة في بلاد الزاب زمن الولاة كانت سنة 164هـ /780م على يد قبيلة ورفجومة، قتل خلالها عامل الزاب المخارق وتمكن العلاء بن سعيد خليفته من القضاء عليها[1].

وعقب ذلك دخلت البلاد في سيطرة الولاة العباسيين، الذين ساهموا في قمع ثورات البربر والجند التي تقوم بين الفترة والأخرى، حتى قام إبراهيم بن الأغلب بتأسيس إمارة الأغالبة.

1- ابن الأثير، الكامل، مج5، ص 602.

المبحث الثالث: بلاد الزاب في عصر الدول المستقلة.

تعد الصعوبات التي لاقاها المسلمون في فتح بلاد الزاب، وبعد المغرب عموما عن مركز الخلافة وقرب عهد أهلها بالإسلام، أسبابا ساهمت في جعل المنطقة خصبة لنشاط الدعوات المناوئة،فمثلت الزاب بؤرة توتر دائمة اشتدت حدتها مع أواخر العصر الأموي، وذلك رغم المحاولات الجادة للولاة ومن ورائهم الخلافة في المشرق، إلا أنهم لم يتمكنوا من السيطرة على الوضع، وبقيت تقض مضاجعهم باستمرار فلم تدع لهم فرصة الاستقرار حتى وهي تدار من قبل أكفئ رجال الدولة كالمهالبة وغيرهم[1].

ولما كانت الخلافة في غنى عن المشاكل المتواصلة القادمة إليها من الغرب، لما تعانيه أصلا في المشرق، وأمام إيمانها بالصعوبات الكبيرة التي تحف محاولاتها الحفاظ على ممتلكاتها مشرقا ومغربا، وجد هارون الرشيد نفسه مضطرا لقبول عرض إبراهيم بن الأغلب التميمي، بإعطائه إمارة إفريقية ولخلفه من بعده، مقابل الحفاظ على رابط الانتماء إلى الخلافة العباسية ومبلغ سنوي منذ سنة 184هـ/797م، لتدخل بذلك البلاد مرحلة جديدة.

وإذا كان إبراهيم بن الأغلب قد أسس لمشروعه هذا انطلاقا من الزاب عندما كان واليا عليها، حين استطاع تهدئة الأمور فيها، إذ لا تأتي المصادر على ذكر أية قلاقل في هذه الفترة، بل تتحدث عن الكيفية التي تمكن بها عامل الزاب من المدافعة عن والي إفريقية محمد بن مقاتل العكي(181-184هـ/797-800م)، ومساندته ضد الثائرين عليه[2].

ومن المرجح أن هذا الدعم كان قائما على الحامية العسكرية الخاصة ببلاد الزاب، ذلك أن هدوء قبائل المنطقة في هذه الفترة لا يعني بالضرورة رضاهم عنه، وهكذا يكون أمر مشاركتهم في جيش إبراهيم محل شك، فللرقيق رواية يذكر فيها أن تجار بلاد الزاب رفضوا

1- ممدوح حسين، إفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي، قراءة جديدة تكشف افتراءات دعاة الفاطميين، دار عمار، ط1، عمان، الأردن، 1417هـ، 1997م، ص10.
2- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص90-93.

إقراضه المال ليعينه في حركته، لظنهم أنه سيقضى عليه وبالتالي لن يستردوا أموالهم، ويؤكد الحديث الذي دار بينه وبين بعض قادة جنده أنه خرج في قلة من المال والفرسان[1].

وعلى ضوء التجربة التي اكتسبها أمير الدولة الجديدة عندما كـــان واليـــا، أدرك أن الأخطار تحيط به من كل ناحية، وأن عليه التعامل معها بحذر وذكاء شديدين، فـــلا جنـــد إفريقية يؤمن جانبهم ولا قبائل الزاب يمكن الركون إليها، فقام ببناء مدينة القصر القديم على بعد ثلاثة أميال من القيروان وحصنها بالسلاح وأكثر فيها العبيد السود ليستغني بهم عن كل من يثير الريبة[2].

وإذا كانت التجربة خير برهان فإن السنين والأيام المقبلة من حياة الدولـــة الأغلبيـــة، ستبين لأمرائها أن السيطرة على هذه المنطقة ولفترة طويلة تبقى أمرا ليس بالهين، وهو ما بدأ يتضح منذ زمن أول أمرائها، فعند حديث ابن الأثير عن أحداث ثورة عمران بن مجالد أحد قادة جيش إبراهيم سنة 194هـــ/809م،يقول أنه تمكن من السيطرة على معظم مدن إفريقية، لكنه وبعد معارك عديدة انهزم والتجأ إلى الزاب، التي أقام بها حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب واستأمن من زيادة الله لكنه قتله[3].

والمهم في هذا المقام هو سبب عدم إتباع إبراهيم للثائر إلى الـــزاب مادامـــت قوتـــه انهارت، أو يوكل هذه المهمة إلى واليه على الزاب، ألم تكن خاضعة لـــسلطانه؟ ألا يعـــني إقراره للهدوء فيها عندما كان واليا عليها إخضاعه لقبائلها؟ ولعل الاحتمال الأكثـــر ورودا ربما هو لجوء ابن مجالد إلى إحدى القبائل التي لم تكن خاضعة لحكم الأغالبة، فهـــل مـــن المحتمل أن تكون إحدى قبائل جبل أوراس؟

وهكذا يتبين أن المنطقة لم تفقد دورها بالمساهمة في تأزم أوضاع النظام الحاكم إن لم تكن فاعلة فيه، في ثورة جند طرابلس سنة 176هـــ/792م على واليها عبد الله بن إبراهيم بن

1- أنظر المصدر السابق، ص216، 218.
2- الرقيق، المصدر السابق، ص222، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص93-94.
3- الكامل، مج6، ص235-236.

الأغلب زحف عبد الرحمن بن رستم بجموع عظيمة لمساندة أهل طرابلس، بعد أن وصله نبأ هزيمتهم[1].

وبيت القصيد هنا هو هذا العبور فاحتمال الوارد أنه مر ذهابا وإيابا عبر بلاد الزاب، مما يعزز مسألة أن سلطان الأغالبة على المنطقة لم يكن كليا، وأن للرستميين قبائل موالية ضمنت لهم سلامة المرور.

فهل يمكن القول أن هذا انقساما في الولاء بين الأغالبة والرستميين؟ فمالت كل طائفة إلى جهة أم أنها لعبة السياسة تلعبها قبائل الزاب حتى لا تكون السيطرة المطلقة لأي من الطرفين؟ أم هو ولاء للأغالبة بحكم أنها القوة الغالبة، وولاء للرستميين لأن مؤسسي هذه الدولة بربر رغم كون رأس السلطة فيها فارسيا؟ أم أنه انقسام حقيقي داخل المجتمع الزابي بين القبائل العربية والقبائل البربرية؟

والأمر الذي قد يمنح مشروعية لهذه التساؤلات هو موقف قبيلة نفزاوة من ثورة الطنبذي، الذي ثار على زيادة الله بن الأغلب(201-223هـ/817-837م) سنة 209هـ/824م، ولم يبق في يد الأغالبة غير الساحل وقابس فقد ناصروا الأغلبي حين استنصرهم[2].

واعتمادا على ما تم إقراره في الفصل الأول من أن بلاد الجريد هي امتداد طبيعي لبلاد الزاب، وأن بطون نفزاوة المتعددة كانت منتشرة عبر تلك المناطق، يمكن القول أن هذه القبيلة قد وقفت مع النظام الحاكم ضد الثوار، وقد يكون الأمر دفاعا عن النفس ضد هؤلاء الثائرين الذين اتجهوا نحوهم[3].

وتماشيا مع جو الاضطرابات الذي أصبح السمة الغالبة على بلاد الزاب، سواء من قبل القبائل أو حتى العمال، فقد استغل سالم بن غلبون الأزمة التي قامت بين أبي العباس محمد بن

1- ابن الأثير، الكامل، مج6، ص269-270.
2- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص101.
3- محمد الطالبي،المرجع السابق، ص214.

الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، وأخيه أحمد هذا الأخير الذي حاول الانقلاب على أخيه سنة 231هـ/845م، لكنه فشل في نهاية المطاف ونفي إلى المشرق سنة 232هـ/846م.

وقد ظن ابن غلبون أن قوة الأمير قد ضعفت بسبب ما حدث واتجه بجيشه إلى القيروان سنة 233هـ/847م[1]، وقد كان سبب هذا العصيان أن محمد بن الأغلب عزله عن ولاية الزاب، ليمنحها لأحمد بن سفيان بن سوادة الذي أبلى البلاء الحسن في ثورة أحمد، وتبدو هنا ولاية الزاب جائزة يكافئ بها كل من يحسن صنيعه مع الأمراء، لكن هذه الحركة لم يكتب لها النجاح ، وتم القضاء على رأسها في نفس السنة بعد معركة وقعت خارج حدود الزاب في باجة[2]

لتختفي بعد ذلك أخبار المنطقة بين صفحات كتب التاريخ حتى ولاية أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب أبو الغرانيق (250–261هـ/864–875م)،حين عم الزاب اضطراب كبير والظاهر أن القبائل هي التي كانت وراءه هذه المرة أيضا، فأرسل إليهم جيشا كبيرا بقيادة خفاجة محمد بن إسماعيل، والذي أخذ في إخضاع مدنها الواحدة تلو الأخرى.

ويبدو أن سكان كل من تهوذة و بسكرة وطبنة أعلنوا الخضوع لما رأوا القوة الكبيرة التي زحف بها إليهم، لكن الأمر اختلف في أذنة، فرغم إبداء رؤساء القبائل الطاعة معبرين عنها بتقديم الرهائن والخراج، إلا أن القائد الأغلبي لم يرض بذلك بسبب تخلف زعيم بني كملان من هوارة.

فانطلق إلى أرض هوارة بدعم من جند بلزمة، وفي نيته إخضاعهم بالسيف لكن المعركة انتهت بكارثة حلت بالجيش الأغلبي، فقد قتل قائده وعدد كبير ممن معه[3].

1- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص108-109.
2- ابن عذارى، المصدر نفسه، ص109.
3- النويري، المصدر السابق،ج24، ص 126.

واعتمادا على هذه الرواية الوحيدة يظهر أن أهل الزاب امتنعوا عن دفع مستحقاتهم إلى عاصمة البلاد، فقرر الأمير معاقبتهم بهذه الحملة، ولما رأوا ضخامة الجيش الموجه إليهم حاولوا تفادي ضرباته بتقديم ما امتنعوا عنه سابقا.

لكن هدف الحملة لم يكن فقط جمع الأموال بل إشعار تلك القبائل بالقبضة القوية للدولة، من خلال دخول كل المدن الواحدة تلوى الأخرى، لكن الإيغال في المناطق الوعرة خاصة في جبل الأوراس، والتي ظلت بشكل شبه دائم مستقلة عن الحكم المباشر لأي نظام قائم، كلف القائد حياته وحياة مجموعة كبيرة من قادته وجنده[1].

وهكذا تتجسد حالة بلاد الزاب كالمرآة العاكسة للأحداث التي تقع في عاصمة الدولة، فيكون عنف ردة الفعل بقدر العنف الذي تتلقاه، ويتضح جليا مرة بعد الأخرى الصعوبات التي تلاقيها الأنظمة المتعاقبة في إيجاد السياسة المناسبة لحكمها، غير أن طابع العنف يطغى في أحيان كثيرة.

فهذا إبراهيم الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب (261 - 289هـ/874-901م) فبالإضافة إلى سنين القحط المتوالية (260 – 266هـ/873-879م)[2]، وزادها إبراهيم سوءا بعد أن خالف بسياسته الحكيمة فيهم للسبع الأولى من حكمه، فيبدو أن المجاعات وبناء رقادة 264هـ/877م، والحرب مع الطولونيين 267هـ/880م، جعلت بيت مال الدولة خاويا مما اضطره إلى التشديد على الرعية في الضرائب لإعادة ملئه، وقد أضاف إلى ذلك السيرة الدموية التي بدأ ينتهجها مع القريب والغريب[3].

وتحت وطأة ما حل بسكان الزاب كباقي المناطق، يبدو أنهم كانوا أول الثائرين، وبالرغم من أن المصادر لا تتحدث عن الثورة بحد ذاتها لكنها تصف ردة فعل الأمير الأغلبي، ومنها يستنتج أن حركة قامت بالمنطقة استوجبت هذا العمل، فقال ابن عذارى أن إبراهيم بن الأغلب فتك بأهل الزاب سنة 268هـ/881م "فقتلهم وحملوا على العجل إلى الحفر فالقوا

1- أحمد الطالبي، المرجع السابق، ص283-288.
2- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص 116، 117.
3- ابن عذارى، المصدر نفسه، ص 117 – وما يليها.

فيها"[1]، ويفصل ابن الأثير بأنه حضر وجوههم عنده، فأحسن إليهم، ووصلهم، وكساهم، وحملهم، ثم قتل أكثرهم، حتى الأطفال، وحملهم على العجل إلى الحفر فالقاهم فيها[2].

فالروايتان تقولان انه استعمل أسلوب الخديعة والصدمة، فقد أمَن زعماء القوم ووصلهم حتى يهدءوا ويتراجعوا عن موقفهم، واستمالهم حتى أمن جانبهم، والظاهر أنه اجتثهم عن بكرة أبيهم، حتى لا يبقى من خلفهم من يطلب الثأر، وسارع بدفنهم حتى لا يطالب قومهم بجثثهم، أو حتى لا يروا ما فعل بهم فتزداد ثورتهم، فطبق بذلك العلاج بالصدمة حين صدمهم بمقتل زعماءهم ومدبري أمورهم، فيزرع بذلك الخوف والرعب بين صفوفهم فينقمعون ويعودون عن الثورة.

ومثل هذا العمل لابد أنه زاد من غضب سكان بلاد الزاب وحنقهم وإن شلت حركتهم[3].

ومما يعزز إمكانية أن هذه العملية أتت بثمارها المرجوة أن هذا الأمير عاد وطبق هذه السياسة مرة أخرى مع عرب حصن بلزمة هذه المنطقة الحصينة المشرفة على بلاد الزاب، والتي من خلالها كانت الدولة تتحكم في بلاد الزاب من جهة، وتضمن خضوع قبائل كتامة من جهة أخرى، وإن كان جند هذه الحامية قد اكتسبوا ممن يناصبون العرب حب الاستقلالية عن السلطة المباشرة للدولة الأغلبية إلا أن الأمر لم يعجب إبراهيم الثاني.

وقد اعتبر ربما إجارتهم لسجين هارب من سجونه سببا كافيا للقيام بحملة ضدهم انتهت بالفشل[4]، ففضل عقب ذلك تغيير سياسته لنيل مراده فعمد إلى الكيفية التي انتصر بها على الزاب[5]، فاستمالهم واستقدمهم إلى رقادة وبنا لهم دار كبيرة تشتمل على دور ترجع إلى باب واحد وأغدق عليهم العطايا، وبدأ العدد بسبعمائة ويبدو أنهم أخذوا بالتوافد إلى أن بلغ عددهم نحو الألف، ثم قام بالخطوة التالية بأن أخذ ممتلكاتهم، ثم بعث خيرة جنده فهجموا

1- ابن عذارى، المصر السابق، ص 119.
2- ابن الأثير، الكامل، مج7، ص370.
3- أحمد الطالبي، المرجع السابق، ص193.
4- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص 123.
5- الطالبي، المرجع السابق،، ص 317.

عليهم على حين غرة، إلا أنهم لم يستسلموا وقاتلوا حتى العصر، لكن في نهاية المطاف، قضي عليهم جميعا[1]، ولا يعرف ما إذا كان إبراهيم اعتبرهم رهائن أم أن ذلك يـــدخل في إطـــار اتفاقية ما بين الطرفين بعد ما جرى[2].

وهكذا دق إبراهيم الثاني أول إسفين حقيقي في نعش الدولة الأغلبية، عندما قـــضي على أبناء العرب القيسيين الذين تنتمي إليهم، فقد كانوا درعها في وجه الكتـــاميين، فقـــد وصفهم ابن عذارى بأنهم كانوا يذلونهم، لتسنح بذلك الفرصة لكتامة بالحركة ومناصـــرة الشيعي عليهم[3] .

هذا ورغم القلاقل التي كانت تقوم بين الحين والآخر ضد الأغالبـــة إلا أنهـــم ظلـــوا مسيطرين عليها من الناحية العسكرية، فلم يتمكن الرستميين من دخولها بالشكل الرسمـــي والعسكري، رغم إحاطتهم للأغالبة من الغرب والجنوب والشرق[4]، كما أن المصادر المتوفرة لا تعطي أي إشارات عن إمكانية حدوث ذلك، عدى عما سبق ذكره في هذا المبحث.

1- ابن عذارى،المصدر السابق،ج1، ص123.
2- سعد زغلول، المرجع السابق،ج2، ص 135.
3- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1،ص123.
4- بحاز إبراهيم بكير، الدولة الرستمية (160 – 296هـ)/(777 – 909م) دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، مطبعة لافوميك، الجزائر، 1985، ص 89 – 105.

الفصل الثالث

بلاد الزاب في عهد الدولة الفاطمية

المبحث الأول: موقف بلاد الزاب من الدعوة الشيعية

المبحث الثاني: دور بلاد الزاب في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد

المبحث الثالث: الآثار السياسية و الاجتماعية والاقتصادية لثورة أبي يزيد

المبحث الأول: موقف بلاد الزاب من الدعوة الشيعية.

يعد الحديث عن التغلغل الشيعي في بلاد المغرب منذ زمنه المبكر في المصادر مقتضبا بالنظر إلى النتائج اللاحقة له، إلا أن فيما أوردته ما يسترعي الاهتمام فحين يُذكر أن القائم بأمر الدعوة في اليمن قال لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الصنعاني "إن أرض كتامة موطأة ممهدة لك"[1]

وعندما توصف مرماجنة "بدار الشيعة" و كذلك الحال بالنسبة للأربس و نفطه[2] زمن الحلواني و أبو سفيان حتى وصفت نفطه "بالكوفة الصغرى"[3]

فإنه من الواضح أن هذا الإقرار عن حال الدعوة في المنطقة ، يقول أنها لاقت أكثر من مجرد أذن صاغية ، مع تأكيدهم على سرية عملية نشر المذهب ، والسؤال المطروح هنا : هل كان اختيار مناطق نشاط الحلواني و أبو سفيان اعتباطيا أم بناءا على موقفها من الخلافة العباسية ؟ ولماذا فضل الشيعة كتامة على زناته رغم كون القوة و المنعة في الثانية ؟ ، مما يسهل عليها تحقيق مبتغاها، أو ربما أدركوا الفوارق بين الجانبين على خلفية طبيعة الاحتكاك الذي حدث بين الطرفين كل على حدا مع المسلمين الفاتحين.

وتسكت المصادر المتاحة عن السبب الحقيقي الكامن وراء هذا الاختيار ، ولكن إذا حاولنا استقراء الواقع العام فإنه يقول أن كتامة لم تنتحل المذاهب الخارجية الأخرى والتي كانت منتشرة بين الزناتيين "الإباضية و الصفرية"[4] .

ومن جانب آخر فإن الفترة الزمنية الطويلة التي امتدت بين قدوم الحلواني و أبو سفيان، ولحاق أبو عبد الله و المقدرة بمائة و خمس و ثلاثين سنة" 135"[5] توحي بأمرين ، الأول أن تركيز الإسماعيليين كان على المشرق و الثاني قد يكون عدم ثقتهم الكاملة بنجاح الأمر لما

1- تقي الدين أبي العباس أحمد علي بن عبد القادر العبيدي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط و الآثار المعروف بالخطط،وضع حواشيه، خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1418هـ-1998م ، ج1 ص 20.
2- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 54-57.
3- البكري ، المصدر السابق ، ص75.
4- ابن خلدون ، العبر ، مج7 ، ص14.
5- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 58.

خبروه من أهل البلاد، بالإضافة إلى أمر مهم هو انتشار الصفرية و الإباضية في المنطقـــة إلى جانب المالكية و كلها مذاهب سنية معتدلة إذا ما قورنت به و الذي يعد من مذاهب الشيعة الغلاة.

فالكتاميين بأوراس كانوا إباضية على مذهب النكار الذين قامر ضد استبداد أئمـــة تاهرت بالحكم ، أي أنهم يحملون فكرا يناقض تماما صلب معتقد الإسماعيلية القائل بالعصمة للإمام المهدي[1]، وهذا الأمر يشرح أكثر ما قيل للداعيان من أن أرض المغرب بور تحتـــاج للحرث و الكرب و التذليل[2].

ورغم ذلك فيبدو أن عمل سنوات قد أتى بثماره ، و في القصة التي يوردها القاضي النعمان عن الرجل الذي كان يتنقل بين نفطه و مرماجنة و باغاية لغرض التجارة ، يمكـــن استنتاج احتمال تناقل أهل هذه المناطق أخبار أبو سفيان و الحلواني و ما يدعوان إليـــه[3] ، وهو ما تبدى بشكل واضح أبو عبد الله منذ التقائه بالوفد الكتامي بمكة ، حين لاقى منـــهم الحفاوة و الإقبال الكبيرين بل و التمسك بصحبته[4] ، وكان بينهم من تـــشيع علـــى يـــد الحلواني[5] .

لكن هناك أمر يستوقف الذهن و يأبى أن يمر بالسلاسة التي طرحـــه بهـــا القاضـــي النعمان، حين صور الكتاميين و كأنهم يسيرون وراء الدعاة الأسماعيلية على غير هـــدى ، و دون أن يعرفوا حقيقة مايرمون إليه خاصة أنه أورد أن الحلواني قال بصريح العبـــارة أنهمـــا أرسلا لتذليل الأرض حتى يأتي صاحب البذر [6].

1- ابن عذارى ، المصدر السابق ،ج1، ص124 ، سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 533.
2- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 58.
3- القاضي النعمان ، المصدر نفسه ، ص 58 ، محمد سهيل طقوش ، تاريخ الفاطميين في شمال إفريقية و مصر و بلاد الشام ، 297-567هـ/910-1171م دار النفائس ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1422هـ ، 2001م ، ص 67.
4- المقريزي ، المصدر السابق ،ج1، ص 20 ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي الشهير بلسان الدين الخطيب ت 776هـ ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1424هـ - 2003م ، ج1 ، ص 230-231.
5- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة، ص 63.
6- القاضي النعمان ، المصدر نفسه ، ص 58.

كما أن طبيعة الأسئلة التي كان أبو عبد الله يطرحها عليهم أثناء رحلتهم ، عن عددهم وعدتهم ، عن علاقتهم بالأمراء الأغالبة و مناطق انتشارهم ، ...[1] ، لا يمكن أن تمر بشكل عابر على أذهان من خبروا السياسة و الحرب، و يعيشون بالصراع على مناطق النفوذ.

وبالتالي فإنه من نافلة القول أن زعماء الكتاميين –على الأقل- كانوا على علم بما هو آت، وأن الالتفاف حول أبو عبد الله و المبالغة في تقديره و حثه علـــى المــسير معهـــم إلى المغرب، خاصة بعد مرور سنين على وفاة الداعيين ليس فقط افتتانا بدينه و علمـــه ، بـــل لحاجتهم إلى دعوة يجتمعون حولها لمجابهة قوة الزناتيين[2].

وذلك من أجل هدف أكبر هو الاستقلال عن الخلافة في المشرق و تأســيس دولـــة خاصة بهم، و بالتالي لا ضير من اعتناق أي مذهب مادام معاديا و مناهضا لها [3]، و بالتـــالي فإن كلى الجانبين كان بحاجة الآخر لتحقيق هدف يسعى ورائه يمر عبر كسر شوكة زناته[4].

فقد احتاج الإسماعيليون إلى عصبية في حين بحث الكتاميين عن دعوة لإقامة ملكهم[5]، فقد ذكروا لأبي عبد الله أهم قبائل و أفخاذ و بيوتات لكنهم في حروب داخلية مستمرة[6] ، وهو دأبهم مع الدول التي قامت في المنطقة بالانتقاض مرة بعد مرة[7] .

وعند وصولهم إلى بلد كتامة سنة 280هـــ/893م بدأ العمل الحقيقي لأبي عبد الله منذ لحظة إقامته بإيكجان[8]، إذ بدأ من كان معه بنشر أخباره حال وصولهم إلى مواضعهم و قد تقاتلت قبائل كتامة لاستضافته[9]، ومع ذلك فقد اتسمت الفترة الأولى من إقامته بالهدوء مما سمح له الاهتمام بنشر دعوته[10] .

1- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، 63-66.
2- سنوسي يوسف إبراهيم ، زناته و الخلافة الفاطمية ، مكتبة سعيد رأفت ، جامعة عين شمس ، 1986م ، ص 157.
3- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ج2، ص 533.
4- عبد العزيز المجذوب ، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية ، تقديم ، على الشابي ، الدار التونسية للنشر ، 1395هـ-1975م ، ص 195.
5- ابن خلدون، المقدمة، مج1، ص 167.
6- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 65-55.
7- ابن خلدون، المقدمة، مج1، ص 174.
8- إيكجان: جبل بين سطيف وقسنطينة، تقطنه قبائل كتامة، الحميري، المصدر السابق، ص71.
9- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 73-93.
10- موسى لقبال ، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م) ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، 1979 م ، ص 243.

وهكذا أخذت الوفود بالقدوم عليه وبدأت دائرة شهرته تتسع ، مما أطفا على السطح معارضة داخلية من قبل بعض زعماء القبائل الذين شعروا بالقلق على مصير زعامتهم و نفوذهم[1]، من جهة و من جهة أخرى فإن ما جاء بأبي عبد الله بدأ يتجسد على أرض الواقع، و هو تهديد قوي للنظام السياسي و القبلي-خاصة- السائد بين مختلف القبائل ، بحيث يجعل الحكم لسلطة فوق سلطة المشايخ ويشتت ولاء الفرد بين قبيلته و بين المجتمع الشيعي الجديد، الذي يضم أكثر من قبيلة[2] .

ولئن كانت حركة الوفود كبيرة إلا أنها لم تكن تعبر بالضرورة على الإجماع داخل القبيلة التي يمثلونها ، بل سيطرتهم على الموقف العام هو ما أعطاهم ذلك الحق ، و من هنا برز التحرك ضد دعوة أبي عبد الله جامعا بين عمال المدن و زعماء القبائل الكتامية[3] .

وبهذا المنطلق تمكنت الحركة من رص صفوف أصحاب كل من ميلة و سطيف و بلزمة وزعماء مسالته ، لهيصة ، أجانة ، لطاية و متوسة ، لإنهاء أمر أبي عبد الله ورغم إعمالهم الحيلة في بادئ الأمر – على اعتبار أن أي مناظرة أو قوة تستخدم ستزيد من أنصاره وتوسع أفق انتشار دعوته - ، إلا أن جل ما تمكنوا من تحقيقه هو إخراجه من إيكجان ليستقر به المقام في تازروت ، بل و قد تعززت مكانته و زاد من قوته بانضمام المزيد من السكان إلى دعوته[4]. ويبدو أن العقد انفرط من بين أيدي المعارضين ، إذ أصبح كل من التف حول أبو عبد الله مستعدا للموت في سبيل تحقيق مايصبو إليه ، بعد أن وجدوا السبيل التي ستوصلهم إلى تزعم المنطقة حتى و إن كان على حساب ما ساد في الماضي من نظم قبلية.

وبعيدا عن التفسير الديني الذي يقدمه القاضي النعمان و يعتمد عليه في تبرير فئات واسعة من الكتاميين للداعي الشيعي ، و استذكارا لما ذكره الوفد أثناء رحلته من أنهم

1- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 94.
2- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 68.
3- موسى لقبال ، دور كتامة، ص 247 ، محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 68.
4- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 95-100.

يتقاتلون فيما بينهم ثم يصطلحون[1] ، فالواضح مما يحدث أن الصراع حول الزعامة بينهم قد أخذ بعدا مختلفا، ففي حين تمسك المعارضون بالوضع القائم المبني على القبلية و العشائرية ، قد يكون الموالون للدعوة الجديدة رأوا في التغييرات الاجتماعية التي يحدثها أبو عبد الله ما هي إلا مقدمات للتغيير السياسي و هو الأهم بالنسبة لهم.

وهو أمر له ما يدعمه و لا يمكن إغفاله ، فقد أكدا للداعي حين حوصروا في تازروت أنهم لن يتراجعوا عن دعمه و إذا ما انهزموا و انقضى أمره فـ"لعل الله أن يعوضك غيرنا و يظهر أمره على يدك".[2]

ومن هذه المنطلقات ارتفعت وتيرة الصراع لتصبح أشد حيث عمل قادة المعارضة على تجميع كل طاقاتهم ومحاصرة من أصبحوا بمثابة الأعداء في تازروت.

فاجتمع عمال ميلة و سطيف و بلزمة بعسكرهم ، و أجانة و لطاية و "جميع من يلي ميلة" وكذا سطيف و مزاتة على حصار تازروت ، لكن جيش أبي عبد الله تمكن من هزيمتهم بعد أن خرج إلى كل مجموعة في ناحية ، فلم يكن جهد المحاصرين موحدا[3] .

والأمر اللافت في المفاوضات التي جرت بين الطرفين قبل خوض المعركة ، هو ما طلبه مفاوض الداعي من اعتبار المذهب الشيعي كبقية المذاهب في المنطقة ، وفتح مجال الحرية لمن أراد الدخول فيه أو العدول عنه وعدم الدخول في حرب لاطائل منها ، وتفسير الطرف الآخر لهذه المقترح على أنه خديعة و أن هؤلاء القوم لا عهد و لا ذمة لهم[4].

وقد أثبتت الأيام اللاحقة أن هذا الوافد الجديد يبحث عما سعى لتحقيقه زعماء و أنصار المذاهب الأخرى ، فيذكر المقريزي أن أبا عبد الله قد أخبر كتابه أنه "صاحب النذر"

1- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 66.
2- القاضي النعمان، المصدر نفسه ، ص 110.
3- المصدر نفسه، ص 109-116.
4- نفسه ، ص 114،113.

الذي تحدث عنه الحلواني و أبو سفيان[1] ، و يورد ابن عذارى أنه أخبر الكتـــاميين أنـــه لا يدعوهم لنفسه بل للإمام المعصوم من آل البيت[2].

وبعد هذه الواقعة انطلق الداعي في احتواء القبائل المناهضة الواحدة تلوى الأخرى ، فتزيد بها قوته و يتسع مجاله[3] فقد استطاع إخضاع ملوسة و لهيـــصة و أجانـــة ومـــسالته وعجيسة و زواوة ، لتتم له بذلك السيطرة على كامل بلد كتامة و ضمن تبعية سكانها إمـــا راغبين أو راهبين أو خائفين، و لم يتبق له إلا المدن الواقعة تحت ســـلطان الأغالبـــة و إدارة عمالها.[4]

وفي ذلك الجانب- الأغالبة – يطبق السكون على موقف الأمراء ، بل إن إبراهيم بن أحمد (289/261هــ –901/874م) خرج إلى صقلية و أوصى ابنه سرا بـــأن لا يحاربـــه و أن يلحق به إذا اتجه إليه ، ولكن بعد دخول أبي عبد الله ميلة لم يـــستطع الوقـــوف مكتـــوف الأيدي فوجه إليه عساكره في حملتين سنة 289هــ/901م ، لكنها انهزمت و تمكن الـــداعي إضافة إلى ذلك من دخول سطيف و طبنة و بلزمة.[5]

وفيما تساقطت المدن الواحدة تلوى الأخرى كان الأمـــراء منـــشغلون بالـــصراعات الداخلية والتنافس على السلطة ، والتي أفضت في النهاية إلى تسلم زيادة الله بـــن إبـــراهيم الأغلب للإمارة سنة 290هــ /902م.[6]

وفي هذه الأثناء أخذ عبيد الله المهدي(297-322هــ /909-933م) طريقه إلى المغرب حتى استقر به المقام في سجلماسة و قد تبعته رسالة من المشرق إلى زيادة الله تخبره بـــأمره و تحثه على القبض عليه ، و لكنه تمكن من الهروب من الأغالبة في إفريقية إلا أن يدهم طالتـــه في سجلماسة و سجن فيها.[7]

1- المقريزي ، المصدر السابق ، ج3 ، ص 21.
2- ابن عذارى ، المصدر السابق ،ج1، ص 128.
3- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 134- 143.
4- القاضي النعمان ، المصدر نفسه ، ص 117-122.
5- المصدر نفسه ، ص 134-146 ، ابن عذارى ، المصدر السابق ،ج1، 122-142.
6- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة ، ص 143-146.
7- المصدر نفسه ، ص 153 و مايليها ، ابن عذارى ، المصدر السابق ،ج1، ص 129.

والأمر اللافت هو غياب أي ذكر لزناته و موقفها مما يحدث في المنطقة، فهل يمكن تقسيم ردت فعلها إلى مرحلتين ، الأولى اتسمت بالسلبية منذ قدوم الداعي وإلى غاية سقوط الدولة الأغلبية و عملي ابتداء من ذلك التاريخ ، فالظاهر أنها لم تحرك ساكنا لا استجابة و لا عداءا لعدة أسباب ، منها أن بطونها كانت تدين بمذاهب أخرى فلم يثر المذهب الجديد اهتمامها.[1]

والعامل الآخر هو العصبية القبلية و العداء و التنافس القديم المستحكم بينها و بين كتامة فانحياز أبي عبد الله إلى زناته يعني عداءا لهم ، وهناك جانب آخر يمكن أن يزيد الموقف وضوحا هو عدم توقع الزناتيين النجاح لهذه الدعوة لاعتادهم على الطرف الأضعف –من وجهة نظرهم، إلى جانب أن الشيعة لم يقتربوا من مضاربهم و يشكلوا لهم أي تهديد[2] .

وانطلاقا من هذه النقطة جاءت الحركة الأولى العملية ضدهم ، عندما اخترق الوفد الشيعي العائد من سجلماسة إلى كتامة حاملا رسالة من عبيد الله لأراضيهم ، فقد قتلوا أغلب أعضائه واللافت في هذه الحركة هو ردة فعل الشيعي التي كانت هادئة إذ أن أتباعه أشاروا عليه بالتريث و إرجاء ذلك إلى الوقت المناسب[3]

وعلى كل حال فقد كانوا منشغلين بإخضاع ما تبقى من مناطق تابعة للأغالبة ، و منها بلاد الزاب التي بذل جهدا واضحا للسيطرة عليها إذ عمل الأغالبة على إمدادها بشكل متواصل بالقوات أملا في المحافظة عليها ، لما لها من مكانة عسكرية و اقتصادية في حسابات مختلف القوى، لكن ذلك لم يجدهم نفعا فقد فقدها الأغالبة ليفقدوا بعدها ملكهم ، ويهرب آخر أمرائهم إلى المشرق.[4]

1- سنوسي يوسف إبراهيم ، المرجع السابق ، ص 158.
2- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق، ص 88.
3- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 197- 198.
4- القاضي النعمان، المصدر نفسه، ص 122-231، ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص 122 وما يليها.

وبالعودة إلى المواجهة التي فتحت بين الشيعة و قبائل زناته، يتبين أن الطــرف الثـــاني أدرك في هذه المرحلة أنه من الخطأ الاستهانة بالقوة الجديدة ، بل و يجب أعداد العدة جيدا قبل الإقدام على المواجهة ، و على ضوء ذلك لم يدخلوا في مواجهة مع أبي عبد الله عندما اتجه لتحرير عبيد الله من الأسر في سجلماسة و ابتعدوا عن طريقه ، بل و طلب زعـــيمهم محمد بن خزر الزناتي الصفح و الأمان على ما فعلوه بالوفد و قد حصلوا على مبتغاهم[1].

هذه الخطوة لم تكن سوى مراوغة من قبلهم لتفادي القوة التي جاء بها أبو عبـــد الله لإنقاذ عبيد الله ، و قد اتسمت رحلة الزناتيين مع الشيعة بالمهادنة حينا و العداء أحيانا طيلة تواجدهم بالمغرب ، وكانت أهم محطات هذا الصراع تدور في بلاد الـــزاب متجـــسدة في جانبين رئيسيين فإما ينطلق العمل المضاد من الزاب، أو من مناطق أخرى بقيادة عناصر من الزاب أو بدعم منهم، وذلك حسب ظروف تجمع القوى المعارضـــة و مكـــان و أســـباب اجتماعها، و قد جاءت في أغلبها كردة فعل على سياسات الفاطميين .

وعلى كل حال فقد قال عنهم ابن خلدون بأنهم يعاودون الثورة مرة بعد مرة بالرغم مما لاقوه من العرب في حروبهم، فما أن يستقر الحال بهم حتى يعاودوا الثورة مجددا[2] .

وبهذه الروح المثابرة كانت المسافة الممتدة من طرابلس شرقا إلى تاهرت غربا ، مسرحا لعمليات إما قادها الزناتيين أو ساهموا فيها ، ومنها بلاد الزاب التي أدرك أصحاب الـــدعوة الجديدة خطورة أهلها ، وأهميتها في السيطرة على بلاد المغرب فقاموا بنقل عائلات بأكملها إلى رقاده[3]، تشتيتا لقوتهم التي تشكل خطرا حقيقيا على وجودهم في حال اجتمعت.

1- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 236.
2- أنظر، المقدمة، مج 1، ص 174.
3- الداعي إدريس عماد الدين القرشي، الدولة الفاطمية بالمغرب "المهدي، القائم، المنصور ثورة أبي يزيد " من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار، أعدها للنشر، فرحات الدرشاوي، (د د ط)، 1979 م، ج 5، ص 26.

وإذا كانت الثورات على الفاطميين من كل جانب فإن لبلاد الزاب حظ وافر منها ، فأخطر ما واجه الفاطميين بسبب استعمالهم للعنف المفرط ضد الثوار من الزاب و كامل بلاد المغرب ، وعدم مراعاتهم لظروف الحالة الإنتقالية التي تعيشها المنطقة ، وإغفالهم العمل على تهدئة الأوضاع[1] ثورتان كبيرتان "المارطي و أبي يزيد مخلد بن كيداد "[2] ، و كان العمل المغذي و المساند الأساسي لها مناهضة زناته بمختلف فروعها للحكم الفاطمي، طوال فترة تواجده بالمغرب .

وتزامنا مع هذه الأحداث قاد محمد بن خزر أعمالا مضادة لهم لفترة تربو عن العشرين 20 عاما ، أهم ما تعلق منها بالزاب هجومه على طبنة سنة 297 هـ/909م[3] ، واستيلاؤه على الزاب بشكل كامل سنة 314 هـ/926م و هزيمته للجيش الذي بعث به عبيد الله ، مما اضطره إلى إرسال ابنه القائم في السنة الموالية 315 هـ/927م الذي تمكن من استرجاعها[4] .

هذا بالإضافة إلى ثورة قبائل كيانه ، بني كملان ، و مزاتة بجبل أوراس سنة310 هـ/922م ثم استيلاء ابن خزر على الزاب سنة 317هـ/929م و إخراجه منها مرة أخرى[5].

وإذا كان هذا هو حال زناته و القبائل المناهضة لحكم الفاطميين المستند على القوة وحد السيف[6] ، فإن سند الدولة و عضدها كتامة لم تجد سبيلا آخر غير الانسلاخ والمواجهة العسكرية التي فرضت عليها ، بعد ما لقيه زعماؤها على يد عبيد الله والذي خذلانا و نكرانا لما قدموه في سبيل إقامة هذه الدولة .

1- إسماعيل سامعي ، القاضي النعمان حياته و جهوده في نشر الدعوة الإسماعيلية و تطورها في الدور المغربي 313-363هـ/925-973م ، دكتوراه ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، الجزائر، 2002-2003م ، ص 140 .

2- بن كيداد : أنظر تفاصيل حول نسبه و نشأته ،أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، ج2 ، ص 55. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (608-681هـ)،وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، تحقيق ، أحسان عباس ،دار صادر ، بيروت ،(د س ط) ، مج 1 ، ص 29-31 ، ابن خلدون ، العبر، مج 6 ، ص 124 ،مج 7 ، ص 16 .

3- نفسه، ص 26-27.

4- الداعي إدريس ، المصدر نفسه ، ص 50-51 ، سنوسي ، المرجع السابق ، ص 181.

5- الداعي إدريس، المصدر السابق ،ج5، ص 71 ، سنوسي ، المرجع نفسه ، ص 183.

6- مرمول محمد الصالح ، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 م ، ص 76 .

فقد أطلق عبيد الله الشرارة الأولى لهذه الثورة عندما أقدم على قتل القائم بأمر دعوته، ومن كان معه من زعماء قبائل كتامة ، ذلك أنه أصبح واضحا لديه المكانة التي اكتسبها أبو عبد الله لدى هؤلاء القوم ، مما يعني حجر عثرة حقيقي أمامه في سبيله إلى السيطرة المطلقة على كافة شؤون الدولة ، و بهذا لم يطن أمامه غير التخلص ممن يعتقد يقينا أنهم سيكونون هذا الحجر ، واستغل لذلك ذريعة التآمر بمحاولة امتحانه لتنفيذ مخططه سنة 298 هـ/910م.[1]

لكن هذه الخطوة جلبت عليه سخط الكتاميين عبروا عنه بثورات عديدة ، كان أخطرها تلك التي قامت بأرض كتامة و بلاد الزاب ،فقد خلق تأسيس دولة داخلهم شعورا بقوة تمكنهم من إقامة أخرى ، فينفصلون بذلك سياسيا و مذهبيا عن رقاده [2] ، إذ صبغوا حركتهم السياسية بالصبغة الدينية الشرعية[3] .

" فقدموا على أنفسهم حدثا" يعرف المارطي أو الماوطني كادوا بن معارك ،وهو فتى صغير أقاموه و زعموا أنه المهدي المنتظر ، و اتخذوا من مماطلة عبيد الله إطلاق يدهم في أموال القيروان على وعد كان منه لهم سببا ، فبدءوا بالتطاول على القيروانيين بالأذى ، لتنشب بين الجانبين معركة سنة 299 هـ/911م خرج على إثرها الجنود الغاضبون إلى رقاده أين أعلنوا الثورة ، و تشير الروايات أن "عامة بلد كتامة " قد ساروا وراء هذه الثورة .

وقد تمكنوا من السيطرة على ميله و انتشرت في كامل الزاب و قسنطينة ، و الظاهر أن عبيد الله أدرك خطورة هذه الثور ة ، خاصة بعد انضمام قادة له إليها، فلم يتهاون في إخمادها ووجه ابنه أبا القاسم الذي اتبع سياسة اللين فتمكن من السيطرة على الموقف واستمالة القادة المنفصلين عنهم واستعادة الزاب سنة300هـ/912م[4] .

1- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 159-269 ، ابن عذاري ، المصدر السابق ،ج1، ص 164-165 ، موسى لقبال ، دور كتامة ، ص 439.
2- موسى لقبال ، دور كتامة ، ص 440-441.
3- إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 167.
4- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 273 ، الداعي إدريس ، المصدر السابق ، ج5،ص 29 ، ابن عذارى، المصدر السابق ،ج1، ص 166-167 ، لقبال موسى ، دور كتامة ، ص 445-446.

واستنادا إلى هذا العرض المركز يتضح أن الأهمية السياسية والاقتصادية و العســكرية للزاب استدعت من عبيد الله العمل بكل الوسائل لإبقائها تحت السيطرة ، لكن هذه الجبرية التي شملت حتى المعتقد و الجانب الاقتصادي للناس ، جعل المنطقة بأسرها قابلة للثورة في أي لحظة و مع أي كان مادام مخالفا للشيعة الفاطميين.

المبحث الثاني: دور بلاد الزاب في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد.

يبدو أن عبيد الله قد رأى في السياسة التي انتهجها أبو عبد الله أنها مرحلية نفعت حين كان يقوم بالتأسيس للدولة ، والأساس عليه أن يكون مغروسا في الأرض–على حد وصف أحد الباحثين – ، وقام هو بما اعتقد أنه سياسة مرحلة البناء فوق الأساس[1] .

فأعلن مبادئ مذهبه الشيعية بمجرد دخوله رقادة، ثم قام بتصفية داعيتــه و زعمــاء مؤسسي دولته، وشتت قوتهم بتفريق الجيش بعيدا عن رقادة[2] ، والظاهر أن ردت الفعل على ما قام به جاءت أقوى مما توقع ، فاندلعت نار الفتنة و الصراع المذهبي مع أهل السنة لاسيما المالكية منهم ، وأحدث شرخا في جسم الدولة الإسماعيلية بفتح باب الشك و عدم الثقة في نسب هذه الأسرة، ودعوتها لاحقا و طوال فترتها المغربية متجسدة في الثورات المتتالية.[3]

وأخطر هذه الثورات و التي كادت تقضي على كيان الدولة الجديدة، أبي يزيد مخلــد بن كيداد اليفرني الزناتي التي جاءت و ظروفها الداخلية لم تستقر بعد[4]، ســاعية حــسب أنصارها إلى قلب النظام الشيعي الفاسد الجائر ، وإقامة الدولة النكارية القائمة على الشورى والمساواة، و لا بأس في استباحة الغنائم والسبي مادام الشيعة خارجين عن الملة.[5]

وبهذه الأهداف تمكن من جلب تلك الفئة من السكان الجبليين الذين يحيون حياة غير ميسورة، وقد وجدوا تبريرا شرعيا للفوز بنصيب وافر من الغنائم، واستقطب أهل الــسنة بأوراس و الزاب بعد أن تسلح بمثل دينية و سياسية مدعومة بالعداء التقليدي بين زناتــه و كتامة[6]، وهناك سبب آخر ساعده على الاستفادة من كافة الفرق و المذاهب الناقمة علــى الشيعة و هو عدم إعلانه عن مبادئه ، لكن ذلك لا يعني أنهم كانوا غافلين بدليل أنهم وضعوا

1- موسى لقبال ، الحلف بين أهل السنة و النكارية، في القرن 4 هـ/10م ، وأثره في تطور أوضاع مدن إفريقية و الزاب و الحضنة و الأوراس ، مجلة الأصالة ، باتنة ، العدد 60-61 ، ص 62.
2- القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ، ص 249 ،و مايليها.
3- إسماعيل سامعي، المرجع السابق، ص 118، 122.
4-موسى لقبال ، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي نشأتها و تطورها ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط 1 ، الجزائر ، 1971م، ص 47 .
5- موسى رحماني ، الأوراس في العصر الوسيط من الفتح إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (27-362 هـ/637-972م) ، دراسة اجتماعية ، ماجستير ، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 1427-1428 هـ /2007-2008م ، ص 91.
6- محمد سهيل طقوش ، المرجع السابق ، ص 120-121.

شروطهم قبل الانضمام إليه[1] ، و لأنهم أرادوا التخلص من الشيعة بأي وسيلة حتى ولو كان ذلك بالتحالف مع من يخالفهم مذهبا و أفكارا .

ولما كانت التفاصيل المتقاربة و الكثيرة عن الثائر و ثورته ، والتحليلات و التعليلات لأسبابها و نتائجها ، تملئ صفحات المصادر ، فالملاحظ هو الأهمية الكبيرة التي أحيطت بها ، و الطابع البطولي الذي وسمت به ، ووسط هذا الكم سنحاول استقصاء و تفعيل دور بلاد الزاب على خارطة هذه الثورة .

فلما كانت البداية في قسطيلية قد قضي عليها من قبل يد عبيد الله الطولى ، و منعته من للمضي قدما مما اضطره إلى الانسحاب من ساحة المواجهة إلى حين غيب القدر عبيد الله[2]، ليعاود النشاط لكن هذه المرة في منطقة كل الظروف الطبيعية و السياسية مهيأة وداعمة لما هو مقدم عليه أنها جبل أوراس ، فقد التجأ إلى بني كملان من هوارة و لواتة وبني برزال وبني زنداج من مغراوة ، بعد أن استوثق منها و من مدى استعدادها للوقوف معه في أمره هذا سنة 331هـ/942م.[3]

وبذلك لم تعوزه الأعداد المتزايدة من المناهضين للشيعة و من مختلف المشارب ، و إزاء الوضع القائم الجديد الذي أعطاه الثقة اللازمة للتحرك ، قام بالهجوم على باغاية سنة 332هـ/943م ثم عاد إلى الجبل[4] ، لكن هذه الحركة لفتت أنظار القائم إليه فخرج لحصاره.

وإذا كان الدرجيني و أبو زكريا يذكران أن الجيش حاصره سبع سنين7 بالجبل ، خرج من بعده منتصرا و قد تعززت صفوفه بقبائل من مختلف الجهات، منها عساكر مزاتة بالآلاف انطلق بعدها في عملية إخضاع المدن الإفريقية[5] .

1- ابن عذارى ، المصدر السابق ،ج1، ص 216.

2 - الدرجيني، المصدر السابق،ج2 ،ص 55، ابن عذارى ، المصدر نفسه ،ج1، ص 193 ، أبو عبد الله محمد الصنهاجي ، أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم ، تحقيق و تعليق ، جلول أحمد البدوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1948 م ، ص 30 ، ابن خلدون ، العبر ، مج 7 ، ص 16 .

3- الدرجيني، المصدر، السابق، ج2، ص 56، أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر ، سير الأئمة و أخبارهم ، المعروف بتاريخ أبي زكرياء، تحقيق ، إسماعيل العربي ، دار الغرب الإسلامي ، ط 2 ، بيروت ، لبنان ، 1402هـ - 1982 م ، ص 178 ، الصنهاجي ، المصدر السابق ، ص 30 ، ابن خلدون ، مج 6 ،ص 137 ، مج7 ، 7، 16-17 ،ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص 193-194 ، ابن الأثير ، الكامل ، مج8 ، ص 179.

4- ابن خلدون، العبر، مج 7، ص 17.

5- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص 56، أبو زكرياء ، المصدر السابق ، ص 177-178 .

إلا أن التسلسل الذي يذكره بن خلدون في سرد الأحداث لا يعطي انطباعا بوجـود ذلك الفاصل الزمني الكبير ، فبعد عودته من الهجوم على باغاية حاصره صـاحب باغايـة بدعم من القائم ، لكنه –أبو يزيد– أرسل سنة 331هـ/942م إلى قبائل قـسطيلية و مـن حولها ليحاصروا توزر و هو ما حصل ، لينتقل هو إلى المرحلة التالية ببدء عملياته بإفريقية[1] .

وذكر ابن عذارى أن أمر أبا يزيد اشتد سنة 332هـ/943م[2] ، كمـا أن تـسارع الأحداث و تلاحقها يضع رواية الدرجيني و أبي زكرياء في الميزان ، خاصة أن الـدرجيني يذكر أن أبا يزيد خرج بنفسه إلى الحملة التي وجهها إلى قسطيلية[3]، فيما تحرك–حـسب مؤرخين آخرين– على الجبهات الأخرى من خلال مؤيديه ، و بالتالي فإن الحصار دام سنة واحدة على أبعد تقدير ، و إذا كان قد هرب من توزر سنة 324هـ/935م ، و أعلن ثورته في 331هـ/942م ، فهل يمكن أن تكون رواية الحصار قريبة من الحقيقة.[4]

وعند هذا المستوى من القوة بدأ أبو يزيد أعماله التوسعية بشكل متتالي على حـساب الفاطميين ومناطق دولتهم ، كان ينضم إليه أثناءها المزيد من النـاقمين ومنـهم المالكيـة المتمركزين بالقيروان ، فقد التحقوا بجيشه داعمين مسعاه حتى سقطت في يده كامل إفريقية خلا المهدية[5] .

وقد كان لبني كملان دور بارز في هذه المرحلة بتغذية الجيش بالعناصر الثـائرة ، وإذا كان معظم المؤرخين يفصلون بين بلاد الزاب و الأوراس بذكر كل واحدة على حدا ، فإن الواقع السياسي و القبلي للمنطقة يقول أن أوراس كانت شبه مستقلة عن الشيعة ، و القبائل المنتشرة فيها هي ذاتها في الزاب وهي زناتية من بني برزال و بني كملان[6] .

1- ابن خلدون، العبر، مج 7، ص 17.
2- ابن عذارى ، المصدر السابق ،ج1، ص 216.
3- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص 56.
4- سنوسي ، المرجع السابق ، ص 200.
5- ابن خلدون ، العبر، مج 7 ، ص 17 ، الصنهاجي ، المصدر السابق ، ص 30-31 ، الداعي إدريس ، المصدر السابق ،ج5، ص 80-115.
6- أنظر الفصل الأول مبحث الحياة الاجتماعية.

وعود إلى حصار المهدية سنة 333هـــ/944م ،يتضح أنها كانت نقطة التحول في مسار الثورة ، فبعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من القضاء نهائيا على دولة الشيعة ، أحدث أبو يزيد ما أفسد عليه أمره عندما أمر جنوده بالتكشف عن كبراء المالكية من فقهاء و صلحاء خرجا للقتال معه ، ليتخلص منهم و يصفو له الأمر "فاشتد بغضهم له"[1] ، وهذه العبـــارة تدل دلالة واضحة على أنه بدأ يحدث من الأمور ما لا يرضاه من معه من المالكية –علـــى الأقل– .

وتحت وطأة هذه الروح التي بدأت تتفشى بين صفوف جيشه وطول الحـــصار الـــذي تجدد لأربع مرات متتالية دون جدوى، وتفرق جنوده في غارات السلب و النـــهب علـــى إفريقية، اضطر إلى الانسحاب باتجاه القيروان في 334هـــ/945م ، وهي السنة التي توفي فيها القائم و خلفه ابنه المنصور[2] ، الذي تمكن من الحصول على مدد قادم من كتامة وصنهاجة ، مما أحدث انقلابا في موازين القوى[3].

وأما أبو يزيد فبعد انصراف جيشه ، لم يبق معه "غير جبل أوراس و بني كملان" الذين ظلوا يمدونه بالأفراد و العتاد ، وقد انسحبوا إلى القيروان بعد أن أحسوا بقـــوة الفـــاطميين تتضاعف على أمل استجماع قواهم ، مما اضطر مخلد إلى اللحاق بهم[4] .

ونتيجة لهذا التقهقر لم يستطع العودة ثانية إلى وضعه السابق أبـــدا ، و بنـــاءا علـــى معطيات الوضع الجديد دخلت الحرب مرحلة السجال المتبادل ، حدثت فيها وقائع كـــثيرة كان النصر و الهزيمة فيها من نصيب الجانبين ، و قد اضطر مخلد غير مرة إلى إعـــادة لملمـــة جيشه اعتمادا على بني كملان .

1- ابن عذاري ، المصدر السابق ،ج1، ص 218.
2- ابن خلدون، العبر، مج 7، ص 18.
3- ابن خلدون ، المصدر نفسه ، مج 6 ، ص 181.
4- الداعي إدريس، المصدر السابق، ص 127، 132-133.

وإزاء هذا الوضع الذي آل إليه الحال تمكن المنصور كامل مناطق إفريقية وصـــولا إلى باغاية ، وذلك بمساندة من سكان المدن الذين ثاروا على ولاة أبي يزيد جراء ما لحقهم من أذى منهم و من عساكرهم ، و رفضوا استقباله عقب انهزامه من المهدية و القيروان[1] .

وأمام الموقف المتأزم عمل أبو يزيد على استدراج المنصور بعيدا عن عاصـــمة ملكـــه ومناطق نفوذه ، إما آملا أو معتقدا أن ذلك يسهل عليه القضاء عليه ، خاصة وأن آماله في النصر انتعشت بعد انضمام المزيد من القبائل في هذه المناطق –وهي قلب بلاد زناته المناهضة للفاطميين- كسدراتة و بني برزال و مزيد من بني كملان و باقي هوارة وقبائل سالات من بني برزال[2] .

وعلى كل حال فإن ما كان يحدث في الجهة المقابلة لا يوحي بأن هـــذا المبتغـــى –إن كان هو مقصد أبي يزيد- ليس قريب المنال ، فالمؤرخون يذكرون أن ابن خزر أمير زناتـــة بعث بفروض الولاء والطاعة ، و كذلك جماعة من بني كملان أنفسهم وقد وافقهم المنصور مقابل السعي وراء القبض على أبي يزيد أو حتى قتله[3] ، في حركة وصفت بالميكيافلية[4] .

أضف إلى ذلك التغيير السياسي الذي بدأ المنصور يستحدثه خاصة مع الكتـــاميين ، و كذا قبائل صنهاجة و حتى باقي القبائل الزناتية ، والذي أدى إلى حراك سياســـي لـــصالحه فالمصادر تذكر أنه كان يستقبل بالترحيب أينما حل و منها بلاد الزاب ، فقد ساعده أهلها برفضهم استقبال مخلد فيما استقبلوه هو و عرضوا عليه المساعدة ، فكان يقيم أياما في كل مدينة من مدن الزاب يحل بها ،للعمل على ضمان عدم عودة مخلد إليها خاصة بلزمة، نقاوس و طبنة.[5]

1- الصنهاجي ، المصدر السابق ، ص 35-36 ، الداعي إدريس ، المصدر السابق ،ج5، ص 162-204 ، ابن خلدون ، العبر ، مج 6 ، ص 19.
2- الداعي إدريس ، المصدر السابق ،ج5، ص 208 ،215 ، الصنهاجي ، ص 38.
3- الداعي إدريس، المصدر نفسه، ص 178، ابن خلدون، العبر، مج 6، ص 19.
4- عبد الحميد حاجيات، التطور المذهبي بناحية أوراس في العصر الوسيط، الأصالة، 1398هـ-1979م، العدد، 60-61، ص 52.
5- الداعي إدريس، المصدر السابق،ج5، ص 206-207، ابن خلدون، العبر، مج 6، ص 19.

لكن الأمر اختلف مع بسكرة التي يذكر الصنهاجي أن المنصور دخلها بالسيف و قتل قوما منها، -الأرجح أنهم أتباع مخلد الذين مازالوا على ولائهم له رغم الانقلاب الحاصل ضده-و وزع بعدها الأرزاق على أهلها ثم انتقل إلى مقرة[1] ، وهو ما لا نجد له ذكرا عند الداعي الذي يكتفي بإيراد أن إقامته دامت أربعة أيام[2] ، و أن أهلها تلقوه —حسب ابن خلدون – بعد أن طرد منها أبي يزيد الذي أمل في مدد من ابن خزر لكنه لم ينل مراده[3] .

وهناك مسألة أخرى عززت و دعمت موقف المنصور في مطاردته لأبي يزيد ، هي المدد الذي كان يأتيه من عامل المسيلة[4] كما أن صنهاجة وأحلافها لم تتوقف عن مساندتها له طوال حملته المضادة[5]

وفي نهاية هذه المرحلة وقبل الخروج الأخير لأبي يزيد من بلاد الزاب ، عقب صولاته وجولاته العديدة والتي امتدت من الصحراء جنوبا إلى بلاد كتامة شمالا ،وقعت معركة بين الطرفين بفحص باتنة[6] ، سقط خلالها من بني كملان و مزاتة الآلاف ، الأمر الذي فت في عضد مخلد و اضطره إلى اللجوء لجبل كيانه[7] .

ويذكر صاحب السيرة وقعة أخرى في الزاب في منطقة سماها "قصور الحيتان"، لكننا لم نجد لها ذكرا في باقي المصادر المتاحة ويقول أنها كانت شديدة ، خاصة أن أبا يزيد حاصر المنصور على حين غرة إلا أن جيش الفاطميين أحرز النصر في نهاية المطاف[8] .

ورغم أن المنصور قد أخضع بلاد الزاب إلا أن المؤن بقيت ترد على الثائرين المحاصرين في الجبل، من سدراتة و بنطيوس من أعمال بسكرة الأمر الذي جعل أثمان الأطعمة رخيصة

1- الصنهاجي ، المصدر السابق ،ص 36 ،38.
2- الداعي إدريس، المصدر السابق،ج5، ص 207.
3- ابن خلدون، العبر، مج 6، ص 19.
4- الداعي إدريس، المصدر السابق،ج5، ص 207، ابن خلدون ،العبر ، مج 6 ، ص 19.
5- ابن خلدون،العبر، مج6، ص 181.
6 -باتنة : وصفها الصنهاجي بالمدينة العظيمة الخربة ، وذكر محقق الكتاب أنها أذنه بينها و بين المسيلة اثنا عشر ميلا ، الصنهاجي ، المصدر السابق ، ص 41 ، أنظر هامش نفس الصفحة .
7- الصنهاجي ،المصدر نفسه ، ص 41 ، كيانه :
8- أبو علي منصور العزيزي الجوذري، سيرة الأستاذ جوذر، تقديم وتعليق محمد كامل حسين، محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، (د ط) ، مصر، (د ت) ، ص 49-50.

رغم الحصار ، فكلف المنصور قبائل من زناتة للإغارة على هذه المناطق و قطع الميرة عن أبي يزيد.[1]

كما تسبب دعم قبيلة عجيسة البرنسية لأبي يزيد ، رغم كونها من قرابة صـــنهاجة في القضاء عليها[2]، وهكذا يتأكد مرة أخرى أن السياسة التي انتهجها المنصور قد جمعت بـــين حلفاء و أعداء الأمس و جعلت منهم ذخرا يستفاد منه في حرب عدو اليوم .

بقي الإشارة إلى أن الشيعة كانوا بعيدي النظر عندما اهتموا ببناء المحمدية و حـــشدها بالسلاح والمؤن ، فقد لعبت دورها الكامل فيدعم و مساندة الجيش أثناء حصاره للثائرين في كيانه، مما يؤكد أن ، حساباتهم التي وضعوها للزاب كانت صحيحة إن لم نقل دقيقة[3] .

ولئن كانت بلاد الزاب الحاضن لدعوة أبي يزيد والراعي لثورته ، فإن الأسباب الكامنة وراء هذا الدعم تقول أن المنطقة لطالما تمتعت بالحرية في معظم فترات حكم المسلمين ،وهي تسعى دائما للحفاظ عليها ، لكن هذه الذهنية الثائرة غالبا ما خلفت وراءها نتائج ســـلبية على المنطقة في مختلف النواحي السياسية و الاقتصادية والاجتماعية خاصة ذلك أنها تمـــس بشكل مباشر الحياة اليومية لسكان البلد .

1- الصنهاجي ، المصدر السابق ، ص 41.
2- سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ج2، ص 96.
3- موسى لقبال ، دور كتامة ، ص 432.

المبحث الثالث: الآثار السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية لثورة أبي يزيد.

إن تأسيس الشيعة لدولتهم بالمغرب لم يكن منتهى طموحاتهم، بل كــان ســعيهم الحقيقي يمتد شرقا حيث قلب العالم الإسلامي ، و لتحقيق هدا الهدف كان لابد لهم مــن تطبيق سياسة صارمة-حسب رؤية عبيد الله- ، فضغط على المجتمع المغربي في تبني أفكــار مذهبه و أثقل عليه في الضرائب ، ناسيا أو متناسيا تركيبة السكان النفسية الرافضة للرضوخ بالقوة.[1]

فالمتتبع لروايات المؤرخين عن الوضع العام لبلد المغرب أثناء ثورة أبي يزيد، يرى حالة شديدة الارتباك تشمل مختلف مناحي الحياة، سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية عاشها و تعايش معها الناس، و مع شح ما تعلق من هذه المعلومات بالزاب إلا أنــه يمكــن وضع إسقاطات على الأوضاع العامة،كون إفريقية و المغرب الأوسط عانت كلها بالإجمال من تبعات تلك الثورة .

فكانت بلاد المغرب تعاني بالأساس من الغلاء الشديد و قلــة في مــوارد الطعــام ، وجاءت الحرب لتزيدها ندرة و غلاء، إذ من نافلة القول أن الحرب تحتاج إلى اســتعدادات كبيرة و إمدادات متواصلة، هذا بالإضافة إلى أعمال النهب و السلب التي تقع في مثل هــذه الحالات.

وكذلك فعلت جيوش مخلد بكل مدينة دخلوها[2]، فكلما مروا بواحدة خربوها و سبوا أهلها و غنموا أموالها[3]و من المحتمل أن يكون أبا يزيد قد أطلق أيديهم برا بوعده الذي أطلقه حين أراد جمع هذه الحشود، كما أنه كان يعتقد أنها ستؤدي إلى تناقص مداخيل الفاطميين من الجبايات التي تعينهم على دعم جيوشه، و بالتالي فالمقصد هو تفريــق الجمــوع مــن حولهم.[4]

1- محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ -1985م، ص 284.
2- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص 58، ابن خلدون، العبر، مج7، 18.
3- الدرجيني، المصدر نفسه،ج2، ص 58 أبو زكريا، المصدر السابق، ص 180.
4- موسى رحماني، المرجع السابق، ص 93.

لكن في المقابل توجد إشارة لدى القاضي النعمان تؤكد بأن القائم قد خصص ميزانية من بيت المال لهذه الحرب ، قدرت بـــمائة ألف دينار و اثني عشر ألف درهم و أكد على خازن بيت المال أن تكون نفقة الحرب فقط من هذه الأموال، و أنهم لم يحتاجوا إلى المزيـــد من بيت المال[1] .

وهناك رواية أخرى تقول أن جوذر أهدى للمنصور قبل خروجه في طلب أبي يزيـــد، أكثر من عشرة آلاف دينار لم يقبل منها غير ألف دينار و طلب منه أن يصنع بهـــا ســـيوفا بالمهدية وسرج مذهب له[2] ، وفقا لهذه الروايات يمكن أن يكون الأمر مقبـــولا خاصـــة إذا استذكرنا استعانتهم إلى جانب ذلك بمخازن المهدية و خاصة المسيلة.

ولدى الصنهاجي أيضا ما يدعم الموقف هنا حين يقول أن المنصور كان يوزع الأرزاق و الكساء في المناطق التي يحل بها، ومنها مدن الزاب-كما سبق الذكر-[3] ، لكن مع ذلك لا يمكن إغفال الدولة الفاطمية خرجت من الحرب بخزينة مرهقة[4].

وبالانتقال إلى بلاد الزاب يتضح أنها عانت من ويلات الطرفين المتصارعين، من جانب أبي يزيد الذي ارتكز عليها لإمداده بالجيوش والمؤن باستمرار، خاصة بعد أن تفرق من حوله باقي الأطراف بعد أن دحض بنفسه فكرة إسقاط الأئمة الجائرين ليصبح الوصف منطبقـــا عليه[5] فاضطر بعد ذلك إلى الاعتماد بشكل شبه كلي عليها[6].

وذلك عندما كان بإفريقية و حتى بعد تقهقر جنوبا ثم غربا، واستطاع الحصول علـــى المؤن حتى وهو محاصر في جبل كيانه، قادمة إليه من سدراتة و بنطيوس مما اضطر المنصور إلى إيقاف هذه الإمدادات.[7]

1- القاضي النعمان، المجالس و المسايرات، تح الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، (د ط) ، تونس، 1978م، ج28، ص 551.
2 -جوذر، المصدر السابق، ص 47-48.
3- الصنهاجي، المصدر السابق، ص 36-38.
4- عبد الحميد حاجيات، التطور المذهبي، ص 60.
5- موسى رحماني، المرجع السابق، ص 93.
6- الداعي إدريس، المصدر السابق،ج5، ص 115، 127.
7- الصنهاجي، المصدر السابق، ص 41.

والأمر اللافت أنه رغم المعاناة والضائقة الكبيرة إلا أن تلك القبائل بقيت على دعمها للثورة، مستعدين لدفع الثمن حتى آخر رمق مقابل التخلص من حكم الشيعة، وفي الحقيقة أن هذه الروح التي جمعت بين طوائف مختلفة هي التي أوصلت أبا يزيد إلى أبواب المهدية[1] وتبديدها جعل المطاف ينتهي به محاصرا في الجبل.

وعلى صعيد المجال الجغرافي جمعت الزاب بين المتناقضين، فاحتضنت أبا يزيد وأتباعه، وكانت معبرا للجيوش المتحاربة والقبائل الموالية والمعادية[2]، فنتج عن هذه الفسيفساء ضرر مضاعف إذ استنزفت عسكريا واقتصاديا وبشريا من قبل مؤيدي مخلد، ووقع عليها انتقام الفاطميين بعد القضاء على الثورة من جهة أخرى[3] .

كما تحمل اقتصاد المغرب العبء الأكبر فتذكر المصادر أن جيش أبي يزيد أفنى ما بإفريقية كلها، وأن سكان المهدية اضطروا إلى أكل الميتة والدواب وغيرها[4]، وأن من أفلته السيف أهلكه الجوع[5]، وأن أهل القيروان أشرفوا على الهلاك[6]، فهذه العبارات تصور درجة السوء التي بلغتها الأوضاع الأمنية و المعيشية لسكان إفريقية والمغرب الأوسط، وأن النفوس "بلغت التراقي" أيام حصار الفاطميين لأبي يزيد في جبل أوراس[7].

وعندما يطلعنا الصنهاجي عن الحركة التي قام بها زناتيون ضد أهل بسكرة بأمر من المنصور، واصفا إياها بالإغارة فسلبوهم ونهبوا أموالهم مما اضطرهم إلى التوقف عن ميرة أبي يزيد[8]، بمعنى آخر أنهم لم يعودوا قادرين على سد حاجاتهم فما بالك بمساعدة أطراف أخرى.

1- عبد الحميد حاجيات، التطور المذهبي، ص 59.
2- عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 59.
3- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 280، الصنهاجي، المصدر السابق، ص 38 ،41، سنوسي، المرجع السابق، ص 204.
4- الداعي إدريس، المصدر السابق،ج5، ص 127، 224.
5- ابن خلدون، العبر، مج7، ص 18.
6- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص 58.
7- الدرجيني،المصدر نفسه، ج2، ص 56، الصنهاجي، المصدر السابق، ص 178.
8- الصنهاجي، المصدر السابق، ص 41.

ويزيد النعمان الأمر تشريحا عندما يخبرنا أن تاجرا "باع طعاما عفنا بمـــال عظـــيم"[1]، وهذه إشارة واضحة على النقص الفادح في المحاصيل الزراعية و الحركة التجاريـــة نتيجـــة الأوضاع الأمنية.

كما أن للموقف زاوية أخرى للرؤية حين نرى انعكاس الحرب على الفاطميين ووطأة ذلك على بلاد الزاب، فخروجهم منها منتصرين قوى شوكتهم وأخمد نار حركات الإباضية في المغرب إلى غير رجعة[2]، بعد أن مروا باختبار حقيقي وعـــصيب لوجـــودهم الـــسياسي والمذهبي في هذه البلاد[3]، استطاعوا بعده ضم قبائل أوراس تحت جناحهم[4].

لكن في المقابل فتحت ثغرة دخلت منها أطراف خارجية، متمثلة في صاحب قرطبـــة الذي يبدو أن أبا يزيد راسله و قدم له فروض الولاء والطاعة، في مقابل الحـــصول علـــى المساعدة التي حصل عليها[5]، كما توقفت حملات الفاطميين نحو مصر وتـــأثر اهتمـــامهم بالأسطول البحري والحركة البحرية، والتي لم تستطع معاودتها حتى سنة 339هـــ/950م.

والأهم من ذلك بالنسبة للداخل هو مراجعة الخلفاء لسياساتهم اتجاه ســـكان بـــلاد المغرب، فابتعدوا عن التعصب المذهبي وخفضوا من الضرائب الملقاة على عـــاتقهم[6]، فقـــد اقتنعوا أن منهجهم قادر على الذهاب بدولتهم[7]، كما أن هذه الثورة و غيرها أكدت لهـــم أن الأرض غير مستقرة تحت أقدامهم، مما جعلهم يعجلون بالانتقال إلى مصر[8]

وتبرز الانعكاسات الاجتماعية المباشرة لهذه الثورة، فالاعتداء على الحرمات وســـبي النساء يؤدي كنتيجة حتمية إلى اختلاط الأنساب، عدى عن هتك ستر العائلات واختلال النظام الطبقي عندما تصبح الحرائر سبايا وبمنزلة الموالي والمماليك.

1- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ج1 ، ص 55.
2- محمود إسماعيل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 252-253.
3- عبد الحميد حاجيات، التطور المذهبي، ص 60.
4- القاضي النعمان،افتتاح الدعوة، ص 280.
5- ابن خلدون، العبر، مج 7، ص 18.
6- سنوسي، المرجع السابق، ص 244-246.
7- موسى رحماني، المرجع السابق، ص 96.
8- مسعود مزهودي، الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (296-442هـ) (909-1058م) ، المطبعة العربية، جمعية التراث، غرداية، 1417هـ، 1996م، ص 102.

و لم يتوانى جيش مخلد عن تخريب و هدم الكثير من العمائر في مختلف المدن[1]، فيبدو أنه فاق ما حدث زمن الكاهنة و حسان مـــن قبـــل وأثنـــاء الهجـــرة الهلاليـــة فيمـــا بعـــد 444هـــ/1025م[2]، عدها أبو زكرياء بثلاثين ألف قرية[3]، فإذا كان ما خرب يعد بـــالآلاف وأن من أفلته السيف أهلكه الجوع، فالظاهر أنه لا يمكن تخيـــل عـــدد الـــضحايا الـــذين سقطوا،فتحت ذريعة الانضمام إلى هذه الفئة أو تلك ارتكبت الأعمال التخريبية.

وإذا كان الخراب قد عم مدنا كثيرة من بلاد الزاب، فإن المسيلة غدت زاهرة بعد أن ارتحل إليها الفارون من نعول الهدم في المناطق الأخرى، وبعثوا فيها النـــشاط الاقتـــصادي وجسدوا وأصلوا فيها تقاليدهم الحضارية[4] .

وأما فيما يتعلق بحركات الخوارج ورغم النتائج السلبية التي عادت بها على مجتمعات بلاد المغرب، بسبب طبيعة المواجهة ضد السلطة الحاكمة أيا كانت، فهي في المقابل منحت قوى هذا المجتمع تطورات سياسية قلبت من خلالها الموازين، عندما تمكنت طبقات مسحوقة من الثورة والوصول إلى سدت الحكم[5] .

وفي المقابل أفل نجم الإباضية في المغرب الأوسط بلا عودة، وبسط المـــذهب المـــالكي سيطرته على المنطقة.[6]

1- الداعي إدريس، المصدر السابق، ج5، ص 83 ،143، أبو زكريا ،المصدر السابق،ص 180، 181.
2- عبد الحميد حاجيات، التطور المذهبي، ص 60-61.
3- أبو زكرياء، المصدر السابق، ص 181.
4- موسى لقبال، دور كتامة، ص 430.
5- محمود إسماعيل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص 285.
6- مسعود مزهودي، المرجع السابق، ص 102.

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية في بلاد الزاب

المبحث الأول: موقع بلاد الزاب وأهميته الاقتصادية

المبحث الثاني: الزراعة و الصناعة

المبحث الثالث: التجارة

المبحث الأول: موقع الزاب وأهميته الاقتصادية.

إن طبيعة البلاد الجغرافية وتركيبتها السياسية والقبلية، كانت تستدعي من كل نظـــام قائم جديد الاهتمام بشكل بالغ بتحصين أوضاعه الأمنية الداخلية وحمايـــة حـــدوده، وفي خضم ذلك تدخل في صدام عنيف مع القبائل المسيطرة على مختلف المناطق ومنها الطـــرق التجارية، ويتعلق الأمر في هذا المقام بقبائل زناتة،كتامة و صنهاجة.

فقد كان لها جيوش تجمع في الحرب للدفاع عن القبيلة ومقدراتها، وتشتغل بالفلاحـــة والتجارة في أوقات السلم[1] مما أكسب أسواقهم حركية أكثر وتنوعا أكـــبر في المنتجـــات والسلع والمعروضات[2]، ذلك أنها الميدان الحقيقي الذي تتجلى فيه يوميات المجتمع، ولا يكاد يغيب ذكرها متى ما ذكرت أي مدينة من مدن الزاب.

وهذا ما يؤكد على أن القوافل التجارية التي تشد رحالها من وإلى هذه البلاد كانـــت كثيرة، ويبرز وصف الجغرافيين مدى غناها وأهميتها ومكانتها الاقتصادية و الاجتماعية.

وإدراكا من الوافدين المتعاقبين لما تعنيه المنطقة في موازين القوى السياسية والاقتصادية، لبلاد إفريقية والمغرب الأوسط حاول كل على طريقه ضمها إلى ملكه، والاســـتفادة مـــن خيراتها الطبيعية ومزاياها الإستراتيجية ، بمعنى آخر التحكم في البوابة الجنوبيـــة المؤديـــة إلى مركز السلطة في إفريقية[3]، هذا من جانب والمسالك التجارية المختلفة من جانب آخر .

فبلاد الزاب حلقة وصل بين الأندلس و المغرب الأقصى وبين إفريقية وجـــزر البحـــر المتوسط والمشرق، وكذا مسالك التجارة الصحراوية المؤدية إلى السودان وإفريقيا جنـــوب الصحراء[4]، وبالنظر إلى كل المعطيات السابقة فقد حُفَتْ المنطقة بسلسلة من الحصون إبـــان

1- الدرجيني، المصدر السابق، ج1، ص 19.
2- يوسف عابد، العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية648-649هـ/1250-1296م، ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،1415-1416هـ /1994-1995م، ص 143، 144.
3- محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، ج1، ص 180.
4- الحبيب الجنحاني ، العلاقات السياسية والاقتصادية بين إفريقيا والمغرب الأوسط فيما بين القرنين الثاني و الخامس للهجرة الثامن و الحادي عشر للميلاد، الأصالة، باتنة، الجزائر، 1398هـ-1978م، ج2، ص 346-347.

زمن الرومان فالوندال فالبيزنطيين[1]، كما رسمت لها سياسات زراعية طبقت فيها وكانت تهدف إلى الإفادة من خيراتها المتنوعة[2].

وكان المسلمون الفاتحون قد عملوا على تجنب عمليات الاقتحام التي تؤدي إلى تحطيم القلاع و الحصون، مما سمح للولاة في مراحل لاحقة الاستفادة من فعاليتها لإخضاع الزاب[3]، بل قاموا بترميمها عندما كانت تتعرض للهدم جراء العمليات المتواصلة ضد الثائرين في المنطقة، منها ماأشار إليها المؤرخون زمن عمرو بن حفص المهبلي[4].

1- محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، ص 162، وما يليها، أنظر الفصل الأول.
2- محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص16- 37.
3- شنيتي، المرجع السابق، ص 180.
4- أنظر بلاد الزاب في عصر الولاة.

المبحث الثاني: الزراعة و الصناعة في بلاد الزاب

أ–الزراعة:

يمكن اعتبار الأوضاع السياسية سواء كانت مستقرة أو مضطربة ذات تأثير كبير على الأحوال الاقتصادية من حيث الركود أو الانتعاش، وبلاد الزاب عانت قبيل وأثناء الفترات الأولى من حكم المسلمين من اضطرابات يبدو أنها أثرت على إمكانياتها الزراعية ، مما حدا ببعض الباحثين إلى التشكيك فيما أورده المؤرخون والجغرافيون العرب، من وصف بديع لخصوبة وإنتاجية المنطقة، خاصة ما تعلق منها بالأنهار الكثيرة.[1]

إلا أنها من المحتمل أن تكون شبكة المياه التي عمل الرومان على توزيعها، ببناء السدود وتوصيل القنوات وحفر الآبار وبناء الخزانات[2]، وعلى اعتبار أن هذا النظام هو جالب لمنافع اقتصادية كثيرة، فمن المرجح أن كل وافد جديد حافظ عليه واعتنى به، فاستمرارية تدفق الماء تعتمد على "الإنباط و الامتراء"[3]، وهو الأمر الذي عمل عليه الأغالبة حين بدأ الاستقرار يعرف طريقه إلى ربوع البلاد، باستصلاح المزارع وتعمير قنوات الري المتضررة.[4]

وقد اعتمد أهل الزاب على مصادر مياه مختلفة منها الأمطار والأنهار والوديان والآبار[5]، وإذا كانت مياه الأمطار الأفضل لكل المزروعات والنباتات بسبب عذوبتها[6]، إلا أنها قليلة جنوب المنطقة بحيث لا يستطيع الفلاحون الاعتماد عليها بشكل أساسي، فكما تختلف نسبة التساقط من فصل إلى آخر فهي كذلك من يوم لآخر في فصول المطر.[7]

ذلك أن بلاد الزاب تنقسم حسب التساقط إلى ، شمالي وتعد كمية الأمطار فيه معتبرة نظرا للطبيعة الجبلية التي تتمتع بها والتابع لمناخ البحر المتوسط، والجنوبي المتاخم للصحراء متأثر بمناخها الجاف، وهو ما يجعل الفلاحين يعوضون النقص الناجم عنه بالاعتماد على

1- نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص 204، جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (9-10م) ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د س ط) ، ص 59.
2- غانم، المرجع السابق، ص 22، أنظر الفصل الأول مبحث الحياة الاقتصادية.
3- ابن خلدون، المقدمة، مج2، ص 49.
4- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص 44.
5- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 57.
6- ابن بصال، كتاب الفلاحة، نشر وترجمة وتعليق، خوسي ماريه مياس بييكروسا، محمد عزيمان، تطوان، المغرب، 1955م، ص 39.
7- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص 56.

الآبار والعيون، والأنهار التي ينبع معظمها من كتلة أوراس وربما كانت مجد أودية تستمد جريانها من مياه الأمطار وقت نزولها، أو من بعض الجداول والينابيع والآبار في الواحات[1].

وتأتي مياه الأنهار في المرتبة الثانية من حيث النفعية، بسبب تأثيرها سلبا على خصوبة التربة، لكن الفلاح يقوم بتعويض ذلك بإكثار السماد الطبيعي وتحل مياه العيون والآبار ثالثة وهي أرضية ثقيلة بخلاف المطر[2]، وقد تعددت أوصاف الجغرافيين لأنواعها ومصادرها فقالوا إن مياه أوراس غزيرة[3]، ووادي سهر بالمسيلة عظيم منبسط على وجه الأرض لكنه ليس عميقا[4]، وجداول المياه العذبة تشق المدينة وآخر يستدير بها[5]، والتي قد تكون منبثقة عن الوادي الرئيسي.

وأما بلزمة فمياهها وآبارها غدقة وجارية[6]، ونقاوس كثيرة المياه والأمطار[7]، ويشق بسكرة نهر ينحدر من جبل أوراس وتحوي آبارا داخلها ترتوي وتسقى منها[8]، وحول طولقة الأنهار[9]، و بطبنة مياه وجداول عذبة وانهار وعيون كثيرة[10]، ويصب في تهوذة نهر ينبع من جبل أوراس.[11]

وبالإضافة إلى مصادر المياه المتنوعة فان هناك عامل آخر جد مهم ساهم في إغناء المحاصيل وتنوعها، وإكساب بلاد الزاب هذه الشهرة هو طبيعة الأرض ونوعية التربة، فمن خلال أنواع المحاصيل، -التي ستذكر في حينها حسب مناطق تواجدها-، يمكن تقسيم التربة في بلاد الزاب إلى خمسة أنواع هي:

1- البكري، المصدر السابق، ص 52، نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص 204-205.
2- ابن بصال، المصدر السابق، ص 39، 40.
3- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 84.
4- ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 85، الإدريسي، المصدر السابق،مج1، ص 254.
5- البكري، المصدر السابق، ص 59، الاستبصار، المصدر السابق، ص 172.
6- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 92، الإدريسي، المصدر السابق،مج1، ص 270.
7- ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 91، المقدسي، المصدر السابق، ص230، البكري، المصدر السابق، ص 50، الاستبصار، المصدر السابق، ص 172.
8- المقدسي، المصدر السابق، ص 230، البكري، المصدر السابق، ص 52، الاستبصار، المصدر السابق، ص 173، ابن خلدون، العبر، مج6، ص 118.
9- البكري ، المصدر السابق، ص 72.
10- الإدريسي، المصدر السابق ،مج1، ص 263، الاستبصار، المصدر السابق ، ص 172.
11- البكري، المصدر السابق، ص 72، الاستبصار ، المصدر السابق، ص 174، وقد ذكر في الفصل الأول الأهمية الاقتصادية لهذه المنطقة بالنسبة للرومان وذلك لما توفره لهم من كميات كبيرة من الحبوب.

الأرض الجبلية: واهم حاصلاتها اللوز، التين، الفستق، البلوط و القسطل، يغلب عليها البرودة واليبوسة وهي مائلة إلى الحروشة بحيث لا يصلح فيها كل الثمر[1].

الأرض الرملة: بردها يتقوى ببرد الهواء فإذا كان فصل الخريف تقوت حرارتها بحرارة الهواء[2].

الأرض الحمراء: أكثر ثمارها التفاح والأجاص عيون البقر و التوت، اللوز وحتى الورد ومزروعاتها الخرشف وما جرى مجراه[3].

الأرض الحرشا: مضرسة محببة، يابسة باردة، رطبة، تجود بالإصلاح، من ثمارها الفستق والجوز واللوز والتين والأجاص والورد، بالإضافة إلى الخضر كالقرع والباذنجان و الكرم، والرمان والتوت و الصنوبر والسفرجل والخوخ والبرقوق[4] .

الارض المدمنة السواد المحترقة الوجه: حارة يابسة مالحة، يقلل الشتاء من ملوحتها، يصلح فيها الكتان، الفول، الخردل، الكزبر، وجميع الخضر في فصل البرد بالإضافة إلى التوت والتين والرمان.[5]

فإذا تمت مطابقة سمات هذه الأنواع من الأتربة وما يمكن أن تجود به، مع ما ذكره الجغرافيون-وإن كان مجملا من منتجات الزاب-يتبين أن هناك تناسبا كبيرا وتقاربا بينها، فبجبل أوراس البساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير والكتان[6]، وبالمسيلة الكروم وجنان القطن والحنطة والشعير والبساتين الكثيرة.[7]

وأما نقاوس فجنانها عظيمة تحوي فواكه اللوز والكروم، وهي "بلد الجوز والثمار الجبلية"[8]، وبسكرة بلد النخيل والزيتون وغابات وبساتين، اشتهرت بأصناف التمور منها

1- ابن بصال، المصدر السابق، ص 42.
2- ابن بصال، المصدر نفسه، ص 43.
3- نفسه، ص46-47.
4- نفسه، ص 46-47 .
5- نفسه، ص 48-49.
6- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 84-85.
7- ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 85، البكري، المصدر السابق، ص59.
8- المصدر نفسه، ص91، المقدسي، المصدر السابق، ص 230، الإدريسي، المصدر السابق،مج1، ص 260، الاستبصار، المصدر السابق، ص 172.

الكسبا واللباري الأبيض الأملس[1]، وفي طولقة بساتين الزيتون والأعناب والنخيل والشجر[2]، كما تكثر البساتين والزروع والنخيل بتهوذة.[3]

وعن المشتغلين بالزراعة، فإذا كان من الطبيعي أن تشتغل فئة إما بأرضها فتهتم بها أو كأجراء عند أصحاب الأملاك الكبيرة، فيبدو أن بعضا من أصحاب المهن و الحرف الأخرى كان لها اهتمام بهذا الميدان، يبشره بأخبار المطر والزرع[4]، وأتى وكيل أبو العباس عبد الله بن أحمد بن طالب(227-275هـ/841-888م) بجمال عليها حمولة قمح أيام مجاعة أصابت القيروان فتبرع بها.[5]

ومن المرجح أن تكون فئة على الأقل من فقهاء بلاد الزاب قد نحت هذا النحو، كسبا للرزق ماداموا قد ابتعدوا عن مناصب السلطان وحتى التجارة الخارجية، ومن باب أن العامة يقتدون بعلمائهم فمن المرجح أنهم لم يزدروا هذه الحرفة وامتهنوها.

هذا بالإضافة إلى طبقة العبيد و الرقيق الأسود منهم خاصة، والذين يجلبون للعمل في هذا الميدان نظرا لبنيتهم القوية المتحملة و تكلفتهم القليلة.[6]

أما تربية الحيوانات فمن نافلة القول أن الاهتمام بالزراعة يجعل من تدجين بعضها أمرا مكملا، وذلك لما يحصل عليه الفلاح من منتجات تكمل نظامه الغذائي، فضلا عن المساعدة التي تتوفر له بالاعتماد عليها في الحرث والبذر ونقل المحاصيل،ويرد ذكر المواشي مكملا لوصف المزروعات فأوراس وافرة الماشية من سائر النعم والكراع[7] ويدخل ضمن هذا الوصف البقر والغنم والماعز وأنواع الطيور الداجنة والخيل والبغال.

1- المقدسي، المصدر السابق، ص 230، البكري ، المصدر السابق، ص 52، الإدريسي، المصدر السابق،مج1، ص 264، الاستبصار، المصدر السابق، ص 173، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 126، ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص 138.
2- البكري، المصدر السابق، ص 72، ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص 140.
3- البكري، المصدر نفسه، ص 72، الاستبصار، المصدر السابق، ص 174.
4- القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ت(544هـ) ، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك، تحقيق عبد القادر الصحراوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط2، 1403هـ، 1983م، مج3، ص 92.
5- القاضي عياض، المصدر السابق،ج1، ص475.
6- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص 57، ممدوح حسين، المرجع السابق، ص 46-47.
7- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 85.

وتكثر أيضا المواشي من الأنعام و الدواب والبقر في المسيلة وهي كذلك في بلزمة، ويشير البكري إلى أن اللحم كثير في المسيلة[1]، مما يعني ثروة حيوانية كبيرة، والتي يظهر أنها استعملت لأكثر من غرض كالركوب، فإذا حفلت الحروب بذكر الخيول فإن البغال أيضا لم تغب، فقد تنقل أبو يزيد على حمار وبه اشتهر[2]، ويبدو أنها كانت تفضل في التنقل أحيانا لامتيازها بقوة التحمل.[3]

ولدى ابن الصغير رواية عن عبد الرحمن بن رستم عندما أشار عليه الناس –في المال أي جاءه من المشرق–، بأن يجعل ثلثه في الكراع أي في شراء الخيل[4]، هذا فضلا على الطلب المتزايد للحوم وأصواف وجلود وألبان هذه المواشي تبعا لتزايد ونمو عمران المنطقة.[5]

ب– الصناعة:

يعد النمو الزراعي بالمطلق أحد الدوافع والمحركات الرئيسية لتطوير وابتكار صناعات متنوعة، إضافة إلى ارتباطها بتنامي العمران واستبحاره[6]، فالظاهر أن بلاد الزاب قد استوفتهما وانضاف إليهما ازدهار الحركة التجارية ومتطلباتها.

وإذا كان طابع الحرفية هو الصبغة التي اتسمت بها صناعات البلاد، فإن ذلك لم يكن عائقا في وجه تطور وزيادة الإنتاجية، التي سمحت بتغطية الطلب المحلي وتمويل أسواق خارجية.[7]

ويمكن تقسيم الصناعات التي عرفتها بلاد الزاب إلى قسمين رئيسيين، الأول ما تعلق بها بالزراعة والثاني مرتبط بالتعدين والبناء.

1- ابن حوقل، المصدر نفسه، ص 85، 92،الإدريسي، المصدر السابق،مج1، ص 254، البكري، المصدر السابق، ص 59.
2- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص 217.
3 - جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 67.
4- ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق وتعليق، محمد ناصر، إبراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي، لبنان، بيروت، 1406هـ،1986م، ص 35.
5- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص 48.
6- ابن خلدون، المقدمة، مج2، ص 24.
7- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص 49.

الصناعات المتعلقة بالزراعة:وذلك لاعتمادها على الإنتاج الحيواني والنباتي[1]، تندرج ضمنه محاصيل الزيت والمطاحن، ومحالج القطن[2]، و الأرحية لكثرة ما ذكر من توافر الحنطة والشعير، وكنتيجة مباشرة انتشار المخابز في المدن خاصة، والغرابليين الذين كانت صناعتهم متواجدة على الأرجح في كل قرية ومدينة.

وارتباطا بالمزروعات تبرز إمكانية تجفيف السكان لأنواع مختلفة من الفواكه، والتي منها ما يستعمل لصنع الخمر.[3]

أما صناعة الغزل والنسيج والتي يمكن إلحاق القصارة والصباغة وتركيب الألوان بها[4]، فهي تعد أهم الصناعات في ذلك الزمن لاعتماد الناس عليها، وتعدد استعمالاتهم منها كالملابس بشتى أنواعها، والخيام والفرش والستائر والفوط والبنود وغيرها[5]، فيذكر ليون الإفريقي إن ميلة كانت تعج بالصناع خاصة، من يشتغلون بنسيج الصوف الذي تصنع منه أغطية الأسرة[6].

ولدى جوذر رواية يقول فيها أن المعز لدين الله الفاطمي(341-365 هـ/952-975م) طلب منه تجهيز حصير لمسجد يتم بناءه، ينجزه الحصريون ويطرز من قبلهم إلى جانب الطرازين الذين تأنقوا فيه باستعمال الذهب[7]، ومن المتوقع أن صناعة الحصر كانت موجودة في بلاد الزاب لتوفر المادة الأولية.

كما طلب المنصور منه–جوذر– أن ينفذ إلى الطرازين الرقامين ليثبتوا اسمه بالذهب فيما يلبس الأئمة[8]، وهو الأمر الذي يمكن سحبه على ما يلبس عمال الفاطميين–على الأقل– ولو بشكل أقل فخامة منه، بالإضافة إلى علية القوم خاصة العلماء وكبار التجار.

ويتبع النسيج الصباغة بألوان مختلفة والتي تصبغ بها كل أنواع الأقمشة، منها حتى البنود التي تحمل في الحروب فيذكر ابن عذارى أن الفقهاء والصلحاء الذين ساروا مع أبي يزيد في بداية ثورته حملوا سبعة بنود منها بندان أصفران[9] .

1- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 107.
2- القاضي عياض، المدارك، ج4، ص319، ممدوح حسين، المرجع السابق، ص 51.
3- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 107- 112.
4- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص 50.
5- ابن عذاري، المصدر السابق،ج1، ص 217،جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص 89- 91.
6- ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص 60.
7- جوذر، المصدر السابق، ص 88.
8- جوذر، المصدر نفسه، ص 52.
9- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص 217.

والظاهر انه في خضم الحركة الدءوبة للحياة العامة في المجتمع الزابي كان العمران يزداد استبحارا مما أنتج صناعات مصنفة ضمن ترف الحضارة كالزجاج والـــصائغ والـــدهان و الطباخ والصفار والفراش والدباج والجزار والخراز، بل وتبلغ مداها بتعليم الغناء والـــرقص وقرع الطبول[1].

وانتقلوا إلى المزيد من صناعات الرفاهية كالأواني الفخارية بمختلف أنواعها وإحجامها.[2]

بينما كانت الصناعات الكمالية تتفاوت بين مناطق الزاب المختلفة بين المدينة والقرية، والقرب والبعد عن مراكز التأثر الحضاري، فان منتجات بعينها احتكرت من قبـــل النظـــام الحاكم كضرب السكة وصناعة المكاييل والأوزان حيث يشرف عامل كل إقليم على طبعها وفقا لما يرده من الوالي أو الحاكم أيا كان[3].

أما عن صناعة الأسلحة فهناك روايتان زمن الفاطميين الأولى للقاضي النعمان يـــذكر فيها أن رجلا من أهل مجانة كان ببلزمة زمن حصارها من قبل الداعي أبي عبد الله صنع لهم المجانيق والعراوات (شبه المنجنيق الصغير)وآلات الحروب[4]، والثانية يذكر فيهـــا جـــوذر أن المنصور طلب منه صنع سيوف بالمهدية زمن ثورة ابي يزيد[5].

وهذا يعني أن دار الصناعة لم تكن فقط في عاصمة ولاية افريقية زمن كل دولة، بـــل تعددت دور الصناعة وانتشرت حتى جنوبا، و من المحتمل إن تكون واحدة بالزاب، خاصة أن وضعها المتميز يستوجب وجود مورد قريب للأسلحة لمواجهة المواقف الطارئة.

هذا، ولا يمكن إغفال ما تعلق بصناعة البناء تماشيا مع حركة الاعمار المتزايدة ســـواء لبناء دور بسيطة أو قصور أو حصون وأسوار[6] .

1- ابن خلدون، المقدمة، مج2، ص 42- 69.
2- محمد البشير شنيتي، ج2، ص 178.
3- نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص 210.
4- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، ص 164.
5- جوذر ، المصدر السابق، ص47.
6- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص 50.

الصباغة والظاهر أن اليهود كانوا يقومون بها ومنها صباغة الغزل، لكنهم لم يختصوا بها وحدهم.[1]

المبحث الثالث: التجارة.

أ- طرق التجارة والسلع الصادرة والواردة.

إذا كان الإنسان المدني بالطبع يحتاج إلى الفلاح والحداد والنجار من أجل أبسط حاجاته الغذائية[2]، فكيف بما تشعب منها.

وباتساع نشاطاته الحياتية اليومية، والتي لابد واجدها في الأسواق واردة من مختلف المناطق والأصقاع، لكن الأمر لايتوقف عند تلبية ضرورات و حتى كماليات بل ما يحققه هذا النشاط من ثروة و سلطان وجاه سواء على مستوى الأفراد أو الدول.

وتعتبر التجارة التجلي الأوضح للمدى الذي بلغته الزراعة والصناعة والمبلغ الذي وصلته الأوضاع السياسية والأمنية المستقرة كما أنها تمثل تتويجا لها وبالتالي استثمارا لهذه الظروف مجتمعة إلى جانب الموقع الجغرافي.

والظاهر أن هذه الأجواء قد اجتمعت في بلاد الزاب وقد أحاطت بها شبكة مسالك تجارية منه القديم وأخرى جديدة، منها طريق الذهب والرقيق القديم الرابط بين غانة ومصر عن طريق بلاد النوبة التي تحولت بسبب ماتتعرض له القوافل من مخاطر واتجهت إلى بلاد المغرب، فغدت القيروان وبلاد الجريد ورجلان و تاهرت وتلمسان وفاس و سجلماسة مراكز تجارية هامة ونشطة تفرعت منها شبكة مسالك متعددة.[3]

1- الدرجيني، ج2، ص44.

1- ابن خلدون، المقدمة، مج1، ص45.

2- الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي الحياة الاقتصادية والاجتماعية (3- 4 هـ)/(9- 10 م) الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس، الجزائر،1398 هـ - 1978 م، ص23- 24، ممدوح حسين،المرجع السابق، ص 53.

وإذا تمت إضافة سيطرت الأغالبة ثم الفاطميين من بعدهم على التجارة البحرية وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط، لتصبح بذلك بلاد المغرب كلها من بين أهم المناطق التجارية في العالم الإسلامي بواجهتين تجاريتين بحرية و صحراوية[1]، فتكونت بذلك ثلاث مناطق تجارية أساسية منها بلاد الزاب[2]، والتي تعد الثانية من حيث الأهمية بعد القيروان كونها مصدر ومخزن للمنتجات، وأهم النقاط التجارية في الصحراء ومفترق الطرق إلى مختلف المناطق[3] ، ومنطقة المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، متواصلة فيما بينها بشبكة كبيرة من الطرق متجاوزة الخلافات السياسية بين الأنظمة التي كانت قائمة على الأقل زمن الأغالبة والرستميين والأدارسة، بل أسهمت في تدعيمها وتأمينها، لما تعود به على كل الأطراف[4].

ويذكر ابن الصغير أن السبل استعملت إلى بلد السودان وجميع الأقطار مشرقا ومغربا، ينتقل ويتناقل التجار بمختلف سلعهم من كل الأقطار زمن عبد الرحمن بن رستم[5]، وقد اضطر الأغالبة و الرستميين إلى التهادن في أحيان كثيرة نظرا للموقع الحساس الذي تحتله بلاد الزاب على الحدود بين الجانبين، خاصة أنها لم تكن واضحة تماما بسبب التنقل المستمر للقبائل[6]

وعن هذه الشبكة ذكر الجغرافيون أن بين القيروان وبلاد الزاب عشر مراحل[7]، ويصطف عن يسار جبل أوراس مدن بسكرة وتهوذة وبادس، وهناك طريق يربط بين باغاية ومقرة يمر بدار ملول وطبنة وللوصول إلى طبنة من باغاي أيضا يتم المرور ببلزمة ونقاوس، ومنه يتفرع طريق مجانة الآخذ إلى تيجس ثم بونة، ومن تيجس إلى قسنطينة فميلة فسطيف فالمسيلة، وهناك طريق أخرى من المسيلة إلى إفريقية تمر عبر مقرة فطبنة فبسكرة فتهوذة فبادس فنفطة ثم قسطيلية إلى قفصة وبين كل مدينة وأخرى مرحلة، هذا زمن ابن حوقل[8].

1- ممدوح حسين، المرجع نفسه، ص 54.
1- الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي، ص 19.
2- نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص212.
3- الحبيب الجنحاني المغرب الإسلامي، ص 20- 22.
4- ابن الصغير، المصدر السابق، ص 36- 37.
6- الحبيب الجنحاني، العلاقات السياسية والاقتصادية بين إفريقيا والمغرب، ص343.
6- اليعقوبي، البلدان، ص 190.
8- ابن حوقل، المصدر السابق، ص 67، 85، 87.

أما البكري فيذكر أن المسير من جبل أوراس يكون إلى بلزمة لمزانة وننطلق من نقاوس إلى طبنة ومنها إلى مقرة، والمسافة بين باغاي وبسكرة قدرها بأربعة أيام، وبين المسيلة وطبنة بمرحلتين، وطريق أخرى بين توزر وبسكرة تستغرق خمسة أيام.[1]

ويورد الإدريسي مسالك أخرى، فيذكر أن بين طبنة وبجاية ستة مراحل ثم يعود ويذكر أن بين بجاية وطبنة سبعة مراحل، ومنها إلى المسيلة اثني عشر ميلا، ومن الأخيرة إلى طبنة مرحلتان ومن مقرة إلى طبنة مرحلة، ثم من طبنة إلى باغاي أربع مراحل ومن طبنة إلى نقاوس مرحلتان، ومن الأخيرة إلى المسيلة أربع مراحل أو ثلاث، ومن نقاوس إلى بسكرة مرحلتان[2].

لقد تم الاقتصار في رسم شبكة المسالك التجارية المختلفة التي تربط بين مدن الزاب، وتلك الموصلة إلى حدود الزاب، أين تنطلق شبكة أكثر توسعا.

ولقد تحركت في أسواق بلاد الزاب وبين مسالكها التجارية الداخلية والخارجية،سلع متنوعة يتنوع مصادرها، فعرفت المسيلة بالسفرجل المعنق الذي حمل إلى القيروان[3]، والسمك الصغير الذي تنقل منه كميات كبيرة إلى قلعة بني حماد[4]،

أما بسكرة فتنقل منها أنواع التمور منها اللباري الذي منع عبيد الله الشيعي بيعه وأمر أن يحمل إليه وأصناف الثمار إلى تونس وبجاية[5]، بل وكانت بلاد الجريد تمير كل بلاد إفريقية بحاجتها من التمر[6]،كما اشتهرت بسكرة بجبل الملح الذي كان عبيد الله وأبناؤه يستعملونه في طعامهم[7] ، واستفادت أسواق المغرب من جوز نقاوس[8].

8- البكري، المصدر السابق، ص 50- 51، 60، 75.
1- الإدريسي،مج1، ص 260، 261، 263، 264.
3- ابن حوقل، المصدر السابق، ص85.
4- الإدريسي،مج1، المصدر السابق، ص254.
5- البكري، المصدر السابق، ص52، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص126.
6- الحموي، المصدر السابق، مج2، ص67، الاستبصار ، المصدر السابق، ص155.
7 - البكري، المصدر السابق، ص52.
8- الإدريسي، المصدر السابق،مج1، ص264، الاستبصار، المصدر السابق، ص172.

وانتقلت سلع الزاب والمغرب عموما و الأندلس من تمر وزبيب وحرير وثياب وكتان وزئبق و زعفران إلى بلاد الحبشة[1] ، أما التجارة مع المشرق فكانت دعامتها الرقيق من إفريقية بالإضافة إلى الحبوب وزيت الزيتون والبسط والمنسوجات، وتحمل القوافل عند إيابها بعض المنتجات الفاخرة والأسلحة ، وتعد تجارة زيت الزيتون أهم موادها لكثرة زراعته بالمغرب إجمالا[2] .

هذا بالإضافة إلى الجواهر فقد ذكرها القاضي النعمان عند حديثه عن الحوار الذي دار بين المعز وتجار يقصدون المشرق، فكانت الجواهر في جملة ما يحملون[3] .

وإذا اتجهنا شمالا إلى الأندلس فتتقدم السلع الفاخرة قائمة ما يحمل إلى الطبق الحاكمة، منها البسط والثياب المرصعة والجواهر[4]، إلى جانب الزئبق الذي يستعمله المغاربة في صناعة الذهب[5]، فيما استقبلت الأندلس الحنطة والتين ، الزعفران والفستق والزيوت المختلفة[6]، وقد استجلب إلى افريقية الشب والنحاس المصبوغ من السوس الأقصى[7].

أما أهم صادرات بلاد الزاب إلى السودان فتتمثل في الحبوب، الملح، التمور، الزبيب، العسل، السكر، الخرز، النحاس المصبوغ و الخزف، وأهم ما يرد الذهب والرقيق الأسود الذي كانت الأسواق المحلية تأخذ حاجاتها منه وتقوم بالمتاجرة بالفائض مع بلاد المشرق الإسلامي وأوروبا.

ب – الأسعـــار:

السعر لغة هو الذي يقوم عليه الثمن، وجمعه أسعار وقد أسعروا وسعروا اتفقوا على سعره[8]، وسعر سعبر رخيص[1] ، وسعر السين والعين والراء أصل واحد يدل على اشتعال الشيء واتقاده وارتفاعه، وسعر الطعام من هذا أيضا لأنه يرتفع ويعلو[2] .

1- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري،كتاب الجغرافيا،تحقيق محمد حاج صادق، المركز الإسلامي للطباعة، (د ط)، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، (د ت)، ص124.
2 - نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص 218،.215
3- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات،ج9، ص213.
4- القاضي النعمان، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
5- الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي، ص25.
6 - نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص219.
7- الزهري، المصدر السابق، ص117.
8- ابن منظور، المصدر السابق، مج4،مادة سعر، ص365.

وأما اصطلاحا فهو ما تقف عليه السلع من أثمان لا يزيد عليه[3]، وبناءا عليه فالتسعير هو الكيفية التي يتم بموجبها تحديد سعر السلعة من قبل أهل الاختصاص، وهو أمر من

أو نائبه أو ولاته على الأمصار لأهل السوق ألا يبيعوا أمتعتهم إلا بسعر محدد دمن زيادة أو نقصان[4]، وهو مما لا علاقة للتشريع به ابتداء، بل يخضع لعوامل اقتصادية ينظمها قانون العرض والطلب والعلاقة القائمة بينهما[5].

والتسعير نوعان ظلم لا يجور وعدل جائر، فالأول يكون حين يبيع الناس سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم، ولم يكونوا سببا في ارتفاع الأسعار التي جاءت إما لقلت الشيء أو لكثرة الخلق، وبالتالي فإن إلزامهم بسعر محدد إكراه بغير حق[6].

فعن أبي هريرة رصي الله عنه أن رجلا جاء فقال: يا رسول الله سعِّر، فقال:" بَلْ أدْعُو"، ثم جاء رجل فقال: يا رسول الله سَعِّرْ فقال:" بلِ الله يَخْفَضُ ويَرْفَعُ وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى الله وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عِنْدِي مَظْلَمَةٌ"، وعن أنس قال: قال الناس يا رسول الله غلا السعر فسعر لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن الله هُوَ الْمُسَعِرْ القَابِضُ البَاسِطُ الرَزَاق الْمُسَعِرْ، وَإِنِي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَى الله وَلَا يَطْلُبُنِي أَحَدٌ بِمَظْلَمَةٍ ظَلَمْتُهَا إِيَاهَ فِي دَمٍ أَوْ مَالٍ".[7]

والثاني أن يمتنع من بيع سلعهم مع حاجة الناس إليها إلا بزيادة على القيمة المعروفة، فهنا وجب البيع بقيمة المثل والالتزام بالتسعير[8]، فإن التزم الباعة به شرط أن يوضع من قبل الإمام فهو المطلوب، وإن خالفوه فالبيع ينعقد لكن وجب تعزيرهم للمخالفة[9]، لقوله تعالى:" يَأَيُهَا الذِينَ آمَنُوا أَطِيعَوا الله وَأَطِيعُوا الرَسُولَ وَأُولِي اَلْأَمْرِ مِنْكُمْ"[10] .

1-الفيروز أبادي، المصدر السابق، فصل السين، باب الراء، ص49.
2 - أبو الحسن أحمد فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط1، بيروت، 1411هـ، 1991م، مج3، باب السين والعين وما يثلثهما، مادة سعر، ص75-76.
3- محمد أبو الهدى اليعقوبي الحسيني، أحكام التسعير في الفقه الإسلامي، دار البشائر الإسلامية، ط1، 1421هـ، 2000م، ص13.
4- محمد إبراهيم عبيدات، أساسيات التسعير في التسويق المعاصر (مدخل سلوكي) ، دار المسيرة، ط1، عمان، الأردن، 1425هـ، 2004م، ص152.
5- محمد أبو الهدى اليعقوبي، المرجع السابق، ص5.
6- تقي الدين أبي إسماعيل بن تيمية، الحسبة ومسؤوليات الحكومات الإسلامية، الطريق للنشر والتوزيع، الجزائر 1990م، ص26-27.
7- أبو داود، سنن أبي داود، دراسة، كمال يوسف الحوت، دار الجنان، مؤسسة الكتب الثقافية، ط2، بيروت، لبنان، 1409هـ، 1988م، كتاب البيوع، باب التسعير، ج2، ص293، 294.
8- ابن تيمية، المصدر السابق،ص27.
9- ضياء الدين محمد بن محمد بن أحمد بن أبي زيد القرشي المعروف بابن الإخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، علق عليه ووضع حواشيه، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1421هـ، 2001م، ص67.
10- النساء،آية 59.

وبناء على ذلك أن يكون التسعير وفق خطة مدروسة من قبـــل ذوي الاختـــصاص، مرتكزين بالأساس على الموازنة بين البائع والمشتري حتى لا تظهر ما يعرف حاليا" بالسوق السوداء" أين تباع السلع بأثمان عالية[1].

ويؤثر في الأسعار هبوطا وارتفاعا عوامل عدة منها العمران، فكلما كبر المـــصر وزاد سكانه رخصت أسعار الأقوات الضرورية وغلت الكماليات منها والعكس بالعكس، ذلك أنه كلما اتسعت مجالات الحياة زادت الحاجة إلى الترف، والعامل الآخر هو المكوس والمغارم التي تفرض على أبواب الأمصار وفي أسواقها، فقيمة تلك المكوس تدخل في تسعير السلع[2].

والواقع أن الوضعين يمكن مطابقتهما على بلاد الزاب، ففيها المدن المستبحرة والقرى الصغيرة، خاصة إذا أخضعت لمقاييس ابن خلدون في فترات الاستقرار من حكم الأغالبـــة وكذا الفاطميين، أما فيما يتعلق بالمكوس والضرائب فإذا كان ابن حوقل يذكر أنها كانـــت تفرض على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان، في كل مـــن أجدابيـــة وســـرت وأطرابلس[3].

وعلى هذا الأساس فإنه من المتوقع أن تكون النظم التجارية السائدة واحدة أو مشابهة على الأقل لتلك التي تطبق في الزاب لكونها هي الأخرى منطقة نشاط وعبور تجاري نشيط، .بمعنى أن المكوس كانت تفرض على السلع التي تدخل وتخرج بها القوافل كل حسب قيمتها.

وهناك عامل آخر يلعب دورا مهما في تحديد قيمة الـــسلع، هـــو سياســـة الدولـــة الاحتكارية كاحتكار المؤن، فقد أمر عبد الله الشيعي ببناء المسيلة و حشدها بالطعام[4] ، فأن تملئ مدينة حديثة البناء بالأقوات وتخزن فيها دون الاستفادة منها تعـــني أمـــران، الأول أن المناطق المحيطة من أهراء ومزارع ستحتكر غلالها ولن تباع، وبالتالي ارتفاع أســـعار المـــواد

1- ماجد أبو رخية، حكم التسعير في الإسلام، مكتبة الأقصى، ط1، عمان، الأردن، 1403هـ، 1983م، ص52-53.
2- ابن خلدون، المقدمة،مج2، ص27-28.
3- أنظر المصدر السابق، ص71.
4- ابن الأثير، الكامل، مج8، ص179.

المحتكرة في هذه المنطقة، والثاني أن الناس سيضطرون إلى جلب حاجاتهم من مناطق أخـــرى إما شرقا من بلاد الزاب أو غربا من السوس الأقصى.

وعلى أية حال فإن المصادر المتوافرة لا تشير إلى قيام السلطات المتعاقبة علـــى الـــبلاد بالتسعير، مع ترجيح فكرة أنهم وقفوا منه موقف الشرع فهي من مهام المحتسب، والذي ما كان ليتغاضى عنها خاصة وأن علماء المذاهب الإسلامية المختلفة قد تنـــاولوا الموضـــوع، كيحيى بن عمر (289هـــ/901م) في كتابه "النظر والأحكام في جميع أحوال السوق" وكـــذا "أحكام السوق".[1]

وقد ذكر يحيى بن عمر في مسألة لمالك عن أسواق المصر، هـــل تتبـــع القـــيروان في أسعارها من جميع ما يباع في أسواقها وأجاب أنه لا يحفظ فيه شيئا[2]، وعن أسعار الأقوات المتوافرة سئل سحنون عن الرجل الغريب يدخل السوق وهو جاهل بالسعر... فأجـــاب أن بيع الزيت والقمح ومعروف ليس فيه خطر[3]، بمعنى أنه لا يمكن التلاعـــب بهـــا إلا زمـــن الشدائد[4] فإنها ترتفع ويكون الاستثناء.

وهناك الظروف الطبيعية والنكبات التي لا يمكن إغفال أثرها في غلاء الأسعار، فقـــد شهدت القيروان سيلا عظيما سنة247هـــ/861م[5]، بمعنى آخر أن الكثير من المزروعات قـــد جرفت، فإذا لم تمتد هذه السيول إلى بلاد الزاب فإن تأثيرها الاقتصادي مـــن المحتمـــل أن يطالها، ذلك أنها ستكون من أهم الموارد التي ستعتمد عليها لتغطية الـــنقص الـــذي ســـببته السيول، فتنشط التجارة وترتفع معها الأسعار.

فإذا أضفنا المجاعة والوباء والطاعون الذي أصـــاب مجمـــل بـــلاد المـــسلمين ســـنة 260هـــ/873م، والقحط والغلاء المفرط بإفريقية سنة 266هـــ/879م، وزلزال وهدَات ســـنة 299هـــ/911م بإفريقية، ووباء وغلاء السعر سنة 317هـــ/929م بإفريقية وأعمالها حين بلـــغ

1- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص157.
2- يحيى بن عمر الأندلسي، كتاب أحكام السوق، فصلة من صحيفة المعهد المصري، بقلم محمود علي مكي، الشركة التونسية للتوزيع،1975م، ص108.
3- يحيى بن عمر، المصدر السابق، ص137.
4- يوسف جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص157.
5- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص113.

قفيز القمح بالكيل القرطبي مثقال ذهب[1] ، فمن نافلة القول أن هذه النوازل تمتد تأثيراتها ولا تقصر على منطقة معينة.

ولكن هذا الغلاء يمكن أن يكون في المقابل رخاء بسبب العوامل الطبيعية أيضا، فقد شهدت القيروان عام 318هـ/930م نزول أمطار اصطلحت بها أحوال البلاد ورخصت الأسعار[2] ، هذا رغم أن المصادر لا تمكننا من الإطلاع على أسعار المواد المختلفة بالتفصيل بل تعطيها أوصافا مجملة، كرخص التمر ببلاد الجريد، ورخص الأسعار عموما بميله وسطيف[3]، وقد أشار القاضي عياض إلى غلاء الأسعار زمن البهلول بن راشد.[4]

وارتفاع وانخفاض الأسعار هو ارتفاع وانخفاض لقيمة العملة المتداولة، وقد تعامل سكان بلاد الزاب في عهد الأغالبة بالدينار والدرهم الأغلبي، ومرت هذه العملة بعدة محطات مهمة منها السني الثلاث الأولى منذ قيام الدولة امتدت بين(184-196هـ/800-811م)، إذ لم يضع الأغالبة أسماءهم على الدينار الذهبي رغبة منهم في ضمان أمن جانب العباسيين، خاصة أن إبراهيم الأول كان يدفع أربعين ألف دينار للخليفة سنويا.

ومنذ سنة196هـ/811م استقل الأمراء بسكَتهم ونقشوا أسمائهم عليها، وأما المرحلة الثالثة فتمثلت في ثورة الدراهم والتي جاءت ردا على الإصلاحات التي قام بها إبراهيم بن أحمد سنة 275هـ/888م، حين سحب الدراهم الفضية والقطع من الأسواق، وذلك ليضمن سلامة التعامل النقدي فيصبح على أساس القيمة لا على أساس الوزن، فسك الدراهم العاشرية بحيث تعادل كل عشرة دراهم دينار ذهبي.[5]

1- ابن عذارى، المصدر نفسه، ص116-117، 166، 193.
2- نفسه، ص195.
3- الاستبصار، ص155، 166.
4- أنظر المصدر السابق، ج3، ص90.
5- صالح بن قربة، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ط) ، الجزائر، 1986م، ص 177-178 ، محمد الطالبي، المرجع السابق، ص301-305 ، وعن ثورة الدراهم أنظر، ابن عذاري، المصدر السابق، ص120-121.

وفي فترة متزامنة كان الرستميون على الحدود الغربية للأغالبة، والذين يغفل المؤرخون أي ذكر لاحتمال ضربهم للدنانير الذهبية أو الدراهم الفضية، ويبدو أنهم استعملوا الفلس الذي ضربه عبد الرحمن بن رستم.[1]

لكن الازدهار الاقتصادي الذي عرفته تاهرت كونها ملتقى ومفترق وممر القوافل التجارية، والحاملة للذهب والفضة من السودان يجعل احتمال ضربهم للدينار والدرهم قائما، فمن الخصال التي نسبها ابن الصغير إلى يعقوب بن أفلح الذي حكم تاهرت بين281-284هـ/894-897م أن كرمه وصل إلى حد أن المرء لا يجد بجيبه دينارا ولا درهما[2]، بالرغم من أن هذا المؤرخ لم يشر إلى هوية هذه النقود.

وقد يكون سبب عدم وصول عينات منها هو صهرها من قبل الفاطميين بعد قضائهم على الدولة وإعادة ضربها باسمهم.[3]

وعقب سقوط الدولتين الأغلبية والرستمية وسيطرت الفاطميين على بلاد إفريقية والمغرب الأوسط، انتشرت نقودهم بين سكانها وفي أسواقها، والتي ظلت متداولة بعد رحيلهم إلى المشرق، حتى سنة 441هـ/1049م، قطعت وقد بدأ العمل بها عام 296هـ/908م.[4]

ج-نظم التعامل" المكاييل والموازين"

يقول الله تعالى:"وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونْ"[5]، وقال تعالى" وَيَقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ النَاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ"[6]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" الوَزْنُ وَزْنُ أَهْلِ مَكَة

1- مسعود مزهودي،المرجع السابق، ص188، إبراهيم بحاز،المرجع السابق،ص172.
2- أنظر المصدر السابق، ص112.
3- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص185.
4- ابن عذارn، المصدر السابق،ج1، ص278-279.
5-سورة المطففين، الآية 3.
6- سورة هود، الآية 85.

وَالمِكْيَالُ مِكْيَالُ أَهْلِ المَدِينَة"[1]، وعنه أيضا قال: أن رجلا ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم أنه يُخدع في البيوع، فقال:"إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ لَا خِلَابَة".[2]

وعن عثمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له:" إِذَا بِعْتَ فَكِلْ وَإِذَا ابْتَعْتَ فَاكْتَلَ"[3] أي استوفي حقك وأوفي الناس كيلهم، ومن خلال هذه الآيات والأحاديث وغيرها يتضح بشكل جلي أن البيوع وكل ما يتعلق بها من معاملات هي من صلب التشريع الإسلامي،والكيل منها والذي يعرف في اللغة من كيل: إكتل، إكتال من غيره لنفسه ، وفعل الأمر منه كِلْ، وكِلْتُ لفلان.[4]

وانطلاقا من هذا التأصيل الشرعي فإنه من الراجح أن الأنظمة المتعاقبة على بلاد الزاب، قد أولت العناية والرقابة اللازمتين على السلع والبضائع والعملات المتداولة، وغيرها من المعاملات التي تساهم في اتساع الأسواق ، مع ضمان الثقة فيها، ويعتبر المحتسب هو القائم على هذه المصالح يساعده جهاز كامل يعمل على منع الغش والتدليس ونقص المكاييل والموازين.

وقد توافرت في العالم الإسلامي عموما أربعة أنواع من المكاييل المستخدمة من حيث الصنع هي: المكاييل الخشبية والمعدنية والفخارية والزجاجية.

فالخشبية كانت تصنع عن طريق حفر كتلة خشبية تشد بمسامير، ويوضع في أسفلها طوق يحميها من الإزورار أو الحصر، أو ترص الشرائح الخشبية متجاورة على هيئة مخروط ناقص، تشد بالمسامير لتحتفظ بشكلها العام[5] .

وأما المكاييل المعدنية فيختلف معدن الصنع حسب المقياس، فقد استعمل النحاس الأحمر للصاع و الأصفر للمد[6]، وذلك لكي لا يغش البائع فيتبين المبتاع الأوزان المختلفة[7]،

1- سنن أبي داود، كتاب البيوع، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم المكيال مكيال المدينة، ص266.
2- أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح محي الدين الخطيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، كتاب البيوع، باب ما يكره من الخداع في البيع، ص94، والخلابة الخديعة، نفسه.
3- البخاري، المصدر نفسه، باب الكيل على البائع والمعطي، ص36.
4- ابن منظور، المصدر السابق، مج11، مادة كيل، ص604.
5- سامح عبد الرحمن فهمي، المكاييل في صدر الإسلام، الفيصلية، مكة المكرمة، ص 49-50.
6- سامح عبد الرحمن، المرجع نفسه، ص51.
3- ابن الإخوة، المصدر السابق، ص ، والصاع مكيال لأهل المدينة يأخذ أربعة أمداد ، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ بالمد، وصاع النبي صلى الله عليه وسلم الذي بالمدينة أربعة أمداد بمدهم المعروف عندهم، ابن منظور، المصدر السابق،مج8،

والفخارية ذات أحجام مختلفة ، ويميل لون الزجاجية إلى الأخضر الفاتح أو المائل إلى الزرقة بصفة عامة.[1]

ويوصف المكيال الصحيح مهما اختلفت مادة صنعه بأنه ماستوى أعلاه وأسفله في الفتحة والسعة، فلا يكون فمه محصورا ولا بعضه داخلا وبعضه خارجا، ويجب شده بالمسامير حتى لا يصعد فيزيد أو يترل فينقص[2] ، وأما أدق الموازين فيشترط فيه استواء جانبيه واعتدال كفتيه وأن يتوسط ثقب علاقته العمود، مع تحديد الثقب ووضع المسمار الفولاذي لتكون سريعة الجريان فإن بطئها يضر بالمشتري.[3]

وبالنظر إلى المصادر المتاحة التي لا تمدنا بمعلومات عن مكاييل بلاد الزاب، فإن الوارد أن التجار فيها استعملوا تلك المنتشرة في إفريقية وبلاد المغرب الأوسط على اعتبار أنها امتداد طبيعي للمنطقتين ، وحلقة وصل بينهما .

واستنادا إلى روايات المؤرخين فإن مكاييل خاصة استعملت في الحياة اليومية والمعاملات التجارية، فاختلفت بذلك من منطقة إلى أخرى وهو الأمر الذي يصعب إمكانية التكهن بأن إحدى مدن الزاب قد استعملتها، إلا إذا أخذت من زاوية أن تجارها الذين يقصدون تلك المدن يتعاملون بنظم مكاييل وموازين تلك السوق، ومن هذه المكاييل:

المد: يقول البكري أن مد أهل تاهرت خمسة أقفزة ونصف قرطبية[4]، وكان مد المدينة في فجر الإسلام يساوي ربع4/1 صاع[5]، أما القفيز القروي فيساوي مائتي مد وأربعة أمداد من مد النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك بالكيل القرطبي خمسة أقفزة غير ستة أمداد[6].

مادة صوع، ص215، وعن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد، زكي الدين عبد العظيم المنذري ، مختصر صحيح مسلم ، دار بن حزم ، ط1، بيروت، لبنان ، 1424هـ، 2003م ،ص 52 ، باب ما يكفي من الماء في الغسل والوضوء، رقم الحديث 135 .

1- سامح عبد الرحمن، المرجع السابق، ص 54، 56.

2- ابن الإخوة، المصدر السابق، ص 89.

3-ابن الإخوة، المصدر نفسه، ص87.

4- أنظر المصدر السابق، ص 69.

5- فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ت، كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ط2، ص 74.

6- البكري، المصدر السابق، ص27.

القفيز: يتحدث البكري عن قفيز القيروان وأعمالها والذي قدره بثماني ويبات والويبة أربعة أثمان والثمن ستة أمداد بمد أوفى من مد النبي صلى الله عليه وسلم[1]، وهو عند المقدسي إثنان وثلاثون ثمنا والثمن ستة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وسلم[2].

وإذا كانت الزيادة في القفيز كله اثنا عشر مدا[3]فقفيز القيروان يساوي 204 مائتان وأربعة أمداد نبوية[4]، وإذا كان المد الذي فرضه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على العراق حين فتحت يساوي ثمانية وأربعين مدا ، وعدل في العصر العباسي إلى اثنين وثلاثين رطلا أي نصف القفيز الأصلي ، فذلك يعني أن قفيز القيروان أضخم منهما لأنه يعادل ويبتين والويبة أربع وعشرون مدا، وبالتالي فهو يساوي أربعة أضعاف القفيز[5].

الثمن: ذكر المقدسي أن الثمن في القيروان ستة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وسلم[6]، وإذا كان القفيز حسبه إثنان وثلاثون ثمنا- كما سبق- فالثمن يعادل 398،10كيلوغرام.[7]

وعند البكري الثمنة ستة أمداد بمد النبي صلى الله عليه وسلم [8]أي أحد عشر كيلوغرام.[9]

الصاع: ذكره الدرجيني في معرض حديثه عن مهدي النفوسي" فكالهم بصاعهم لم يطغف و لم يبخس"[10]، والراجح أنه يعادل صاع النبي صلى الله عليه وسلم لضرورة الزكاة[11].

الويبة: ويبة القيروان عند البكري أربعة أثمان[12]، أي 25،5 مد نبوي[13] ويعتقد جودت أن مكيال الدوار الفاطمي الذي ذكر المقدسي أنه يزيد عن ويبة مصر بشئ يسير[14]، هو اسم

1- المصر نفسه، ص16-27.
2- المصدر السابق، ص240.
3- البكري، المصدر السابق، ص27.
4- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص185.
5- نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص141.
6- المصدر السابق، ص240، فالتر هنتس، المرجع السابق، ص61.
7- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص187.
8- أنظر المصدر السابق،ص26.
9- جودت، المرجع السابق، ص 817.
10- أنظر المصدر السابق،ج2، ص49.
11-جودت، المرجع السابق، ص187.
12- أنظر المصدر السابق، ص26.
13- جودت، المرجع السابق، ص187.
14- المقدسي، المصدر السابق، ص240.

آخر للويبة[1] وذلك من خلال الوصف الذي يقدمه هذا المؤرخ إذ يقول" ألجم رأسها بعارضة من حديد وأقيم عمود من قاعها إلى العارضة فوقه حديد يدور على رأس الويبة، فإذا أترعها أدار الحديد فمسحت فم الويبة وصح الكيل".[2]

الوسق: ورد ذكره عند الدرجيني " قدر الكساء يحمل البعير وسقه حبا" و" يحمل البعير وسقه عسلا"[3]، والواضح أن هذا المكيال يستخدم للحبوب والسوائل، ويقدر حمل البعير بـــ 60 صاعا نبويا كل صاع أربعة أمداد نبوية[4].

وهنالك مكاييل أخرى منها المطر والصحفة والقادوس والعمورة والقلبـــة واللـــوح والزلاقة والحفنة والقسط...[5]، هذا فيما يتعلق بالمكاييل وأما عن الأوزان فقد اتخذها الناس لتساعدهم في الحالات التي لا يصلح فيها الكيل ولها وحدات خاصة منها:

الرطل: كان يزن في العصر الفاطمي 130درهما أي 406،25 غرام وهو نفسه البغـــدادي، والرطل الفلفلي 140درهما أي 437،5غرام[6]، وقد كانت أرطال المغـــرب بغداديـــة لكـــن المعاملات أصبحت تتم بالرطل الفلفلي منذ زمن الفاطميين والذي يزيد بعشرة دراهم عـــن البغدادي، ومادة صنعها من الرصاص[7].

واستعملوا أيضا الأوقية والمثقال والدرهم[8]، والخروبة وقد تكون هذه الأخـــيرة أدنى الأوزان التي استعملت في هذه البلاد[9]، والقنطار[10]، وتختلف الموازين باختلاف السلع هـــذا بالإضافة إلى أن لكل منطقة قيمة لأوزانها تبعا لانخفاض أو ارتفاع الأسعار.

فاختلاف قيمة الرطل مثلا أدى إلى اختلاف قيمة القنطار[1]، إذ نجد أن رطل اللحم في تاهرت خمسة أرطال وقنطار الزيت قنطاران إلا ثلث، وأما المواد المجلوبة فقنطارهـــا عـــدل

1- جودت، المرجع السابق، ص188.
2- المقدسي، المصدر السابق، ص240.
3- المصدر السابق، ج2، ص 63.
4- إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1996م، ص151، أي 252،3456 لتر أو 194،3 كلغ قمح، فالتر هانتس، المرجع السابق، ص79.
5- مسعود مزهودي، المرجع السابق، ص183، جودت، المرجع السابق، ص187، 188، 189.
6- فالتر هنتس، المرجع السابق، ص36.
7- المقدسي، المصدر السابق، ص240، أنظر جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص179-181.
8- البكري، المصدر السابق، ص20، 62.
9- إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص181.
10- البكري، المصدر السابق، ص69، أنظر تفاصيل أكثر، جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص183.

كالفلفل[2]، وهكذا يتضح أن المواد المتوافرة داخل المدينة كانت بخسة الأثمان لكثرتها فتبـــاع بإضعاف المكاييل العادية، في حين أن المجلوب عزيز مما يبقي على كيله ثابتا.[3]

1- مسعود مزهودي، المرجع السابق، ص186.
2- البكري، المصدر السابق، ص69.
3- إبراهيم بحاز، المرجع السابق، ص180.

الفصل الخامس

الحياة الاجتماعية والثقافية لبلاد الزاب

المبحث الأول: طبقات المجتمع

المبحث الثاني: العادات والتقاليد

المبحث الثالث: عوامل ازدهار الحياة العلمية في بلاد الزاب

المبحث الأول: طبقات المجتمع

تعد الحياة الاجتماعية الصورة المثلى للتفاعلات التي تحدث بين الظروف الـــسياسية والأوضاع الاقتصادية، بحيث تنعكس على تفاصيل يوميات المجتمع بتأثيرها إيجابا وسلبا، وبما أنه تم التطرق إلى تركيبة المجتمع الزابي قبيل وأثناء المراحل الأولى للفتح الإسلامي ، للمنطقة وإلى حياته الاجتماعية، فيبدو من الواجب تقصي التغييرات التي حدثت على هذا الــصعيد، بعد أن احتك المجتمع بالعنصر الجديد والذي استمر توافده أفراد وجماعات على البلاد.

وعلى ضوء التمازج حدث تغير يمكن أن يوصف بالجذري في تركيبة ســكان بــلاد المغرب عموما وبلاد الزاب خصوصا، كما تسربت عادات ومعتقدات الوافد الجديــد إلى أذهانهم وانطبعت في سلوكياتهم وحياتهم اليومية، وذلك عبر مراحــل زمنيــة تــسارعت وتباطأت فيها عملية الامتزاج وفقا للظروف السياسية القائمة.

وانطلاقا من أن المجتمع الزابي كان يتكون من فئتين رئيسيتين قبيل قدوم المسلمين، همــا أهل البلاد الأصليون والوافدون القادمون سواء من شمال البحر الأبيض المتوسط أو أولئــك المجلوبون من الجنوب حيث بلاد السودان، ثم انضاف إليهم العنصر العربي القادم من المشرق، يمكن تقسيم مجتمع بلاد الزاب بعد الفتح إلى البربر والعرب وأهل الذمة والعبيد، وعلى هذا الأساس سنحاول تبين تأثر وتأثير هذه التركيبة بالواقع السياسي الجديد.

أ-البربر:

يعتقد أن التقسيم الطبقي داخل القبيلة الواحدة لم يتغير، فهناك الفئة الثرية بفضل مــا تملك من مواشي التي تتنامى مع عمليات السلب التي يقومون بها، وفئة العامة ويميزها تقارب الأوضاع الاقتصادية وهي أقل درجة من الأولى ، والموالى وهم عادة من خــارج القبيلــة ، والعبيد وهم أسرى الحروب[1].

1- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص254.

ولكن هذا التقسيم يمكن أن نسقطه على القبائل التي ظلت قاطنة بضواحي المدن، وحافظت على نمط الترحال في حياتها، فقد وصفت قبائل زناتة بأنهم رحالة ظواعن ينتجعون من مكان لآخر ، لكنهم متحظرون وأكثرهم فرسان ، ويحدد الإدريسي مواطنا انتشار البربر في موضع آخر بأنها حوالي باغاية ، ومع ذلك لم يكونوا منعزلين عن العرب بل كانت بينهم علاقات ومعاملات[1]، مما يجعل التأثير في أضيق الحدود.

وعلى صعيد آخر فإن الوضع يختلف بشكل كبير في مناطق الاستقرار أو المدن، وذلك لاحتوائها قبائل عديدة وفئات من مختلف الأجناس والأديان وداخل ا المزيج يمكن، عطاء تقسيم عام للمجتمع عامة وخاصة[2] ويندرج تحت كل فئة البربر والعرب وأهل الذمة.

فنجد ضمن طبقة العامة الفلاحون، أصحاب الحرف، صغار التجار وأصحاب الملكيات الصغيرة، ومن دونهم وصولا إلى العبيد.[3]

فضمن طبقة الفلاحين نجد البربر أصحاب الأرض الأصليين، والعرب الوافدين الذين جعلوا من هذه البلاد ديارا لهم، وقد رأينا أن من العلماء من كان له اهتمام بالفلاحة فما بالك بمن هم دونهم علما ومالا، ومن الوارد أيضا أن يشتغل أهل الذمة بها وإن كان ربما في أضيق الحدود أي كخدم عند الملاك، فقد اشتهروا تاريخيا بالتجارة والصناعة.

وبناءا على هذه المعطيات فإن الأمر ينطبق أيضا على طبقة الخاصة، وما تتركب منه من رؤساء القوم وشيوخهم ووجهائهم ومقدميهم، حجاب وبطانة وحاشية وحشم وحرس وشرطة وقضاة وأصحاب الدواوين الأخرى، و كبار التجار وأهل العلم وكبار الملاك والموالي.[4]

وعلى صعيد تأثير العرب على البربر فقد بدأ الأمر منذ زمن الفتح، فالمعارك التي كانت تجري بين الجانبين تنتهي إلى نتيجتين رئيستين، فتنعكسان بشكل مباشر على المجتمع وهما القتلى والأسرى من الطرفين، فقد تم بيان كيف أن حسان بن النعمان عين ابني الكاهنة على

1- أنظر المصدر السابق، ص257، 277.
2- جودت عبد الكريم، المرجع السابق، ص255، 256.
3- جودت، المرجع نفسه، ص256-271.
4- نفسه، ص271-291.

رأس جيشين كبيرين من البربر، وهذا يعني نشوء سلطة فوق سلطة القبيلة، وخلق تركيبة اجتماعية مختلفة رأسها لم يعد بربريا وتضم عناصر من قبائل مختلفة.

وأما السبي فبالرغم من أن الرقم الذي يذكره ابن عذارى عن سبي موسى بن نصير من طبنة، والبالغ عشرون ألفا إلا أنها بالإجمال عملية نقل لأناس من طبقة عليا إلى أخرى أدنى، إضافة إلى إدخال أعداد كبيرة في الإسلام مما يعني تغييرا في بعض عاداتهم وفي معتقداتهم وتقاليدهم التي لا تتناسب والدين الجديد.

وإلى جانب ذلك ظهرت نتائج سلبية للسياسة التي انتهجها الولاة الأمويون والمبنية على أساس التعصب للعنصر العربي، مما أثار حفيظة البربر، الذين استشعروا أنهم أقل شأنا من العرب رغم كونهم مسلمين، ولم يكن الأمر ليروقهم خاصة مع استفحال انتشار آراء الخوارج بينهم، والداعية إلى المساواة بين كافة العناصر المشكلة للمجتمع الإسلامي، وذلك منذ النصف الأول من القرن الثاني للهجرة.[1]

وقد استمر الأمر على حاله زمن العباسيين، وذلك لاعتمادهم على العنصر الفارسي على حساب العرب والبربر، فقد جلبت حملات محمد بن الأشعث ويزيد بن حاتم وهرثمة بن أعين أعدادا كبيرة من الجند الخراساني.[2]

وبلغت الأوضاع زمن الفاطميين ذروتها حين قسم المجتمع على أساس المذهب، ودرجة الولاء للشيعة، وكتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان مليء بنماذج تشرح طبيعة الحياة وسط المجتمع الفاطمي نأخذ نماذج منها:

ففي مسايرة بين المعز والقاضي النعمان حول من اتبع أبو يزيد في ثورته، وصف الخليفة القتلى منهم الذين لم يندما بحشو الجحيم، والناجين الذين ندموا ، فدرجتهم عنده بقدر ما أظهروا من الندم والطاعة فقال: "إن أقبل.. بمثل ما أدبر فقد غسل ذنوبه ونظف نفسه، وإن زاد في إقباله... على إدباره زاد الثواب والأجر، وإن نقص من ذلك من حظه".[3]

1- إسماعيل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص285.
2-إسماعيل عبد الرزاق، المرجع نفسه، ص287.
3- أنظر المجالس والمسايرات، ج2، ص60.

وعلى هذا الأساس اعتبر المخالفين قد نجسوا، وقدر مكانة العائد بدرجة ولائـه وهـذا يأخذنا إلى أن الرقي في السلم الاجتماعي اقترابا من الطبقة الحاكمة مرهون بالقدر الـذي يظهره الشخص من الولاء، وهو ما يمكن إسقاطه على القبائل الزناتية في بلاد الزاب الـتي دعمت ثورة أبي يزيد، والتي انتهى بها المطاف إلى الانقسام إلى قسمين:

فئة انضوت تحت لواء الفاطميين كبني كملان الذين التحقوا بالمعز عند خروجـه إلى سجلماسة فقبلهم وساروا معه إلى وجهته[1]، بعد أن أدكوا أنه الحل الأنسب لهم وفئة لاقت على يد المنصور ثم المعز التنكيل ثم الإخضاع بعد رفضها الاستسلام[2] .

ويضع المعز تصنيفا طبقيا كالتالي: الولي الذي يُحسن إليه، والعدو الذي يصفح عنه، والشريف المشروف الذي يقتني، والضعيف والقوي الذين يعتد بهم[3].

فالأولياء في الغالب هم كتامة ثم كل من يدخل تحت طاعتهم، والعدو على الأرجـح زناتة لاعتبار العداء الذي لطالما ناصبتهم إياه، وأما باقي الفئات فهي مرتبطة دائما بدرجـة الولاء.

ومما سبق يتأكد أن الشيعة قسموا المجتمع من وجهة نظر مذهبية، فمتى ما أعلن الفرد أو القبيل ولاءه عُد ولبا شريفا قويا، وإن كان دون ذلك في وضعه بين الأقران والقبائـل، ويحط إلى أدنى المراتب إن خالف وأعلن العصيان وإن كان شريفا في قومه،فقد وصف المعز فقهاء المالكية بالعامة حين طلب من النعمان الرد عيهم في إحدى المسائل.[4]

وعلى كل حال فهم لم يغيبوا بشكل كلي مكانة كبراء القبائل المخالفة لهم، فقد أقـر ذلك القاضي النعمان حين تحدث عن " رجل من خاصة أمراء العامة"[5] فهم يقصدون بالعامة السنة.

1- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات ، ج11، ص257.
2- القاضي النعمان ،المصدر نفسه، ج2، ص60.
3- المصدر نفسه، ج4، ص119.
4- نفسه، ج5، ص135.
5- نفسه، ج6، ص158.

ب-**العرب**:

وهم الفئة التي شكلت محور التغيير في المجتمع الزابي، ذلك أنهم جاؤوا محملين برسـالة عليهم تأديتها وهي نشر الإسلام، وهو الأمر الذي يتطلب تمازج مع المجتمع الـذي انتمـوا إليه، وقد عمل الخلفاء على تعزيز ذلك من خلال سبل عدة منها البعثة التي انتدبها عمر بـن عبد العزيز لتفقيه الناس في دينهم سنة 100هـ/718م.

أضف إلى ذلك الحملات العسكرية التي كانت شبه متواصلة لتثبيـت الاسـتقرار في البلاد، لكن العناصر المكنة لهذه الحملات جاءت وهي تحمل معها الصراع الـذي ضـرب أطنابه في المشرق، والمتمثل في النزاع حول الزعامة بين القيسية واليمنية، فكان لهذا المزيج من المستقرين الأثر البارز في الأحداث السياسية التي شهدتها المنطقة.

وإذا كانت القيروان هي المستقر الأول للعرب فإن فئات كثيرة منـهم اضـطرت إلى التروح نحو الداخل في مراحل لاحقة،بسبب الاضطرابات التي شهدتها والأذى الذي لحـق بزعمائهم ووجوههم من أذى وقتل[1]، فدخلوها وكان غالبيتهم من القيسية[2] وسكنوا طبنة، وكان عامل ميلة زمن الأغالبة من بني سليم، وخلصت بلزمة لبني تميم، واستقر قوم من بني ضبة بمقرة .[3]

هذا ما نجده عند اليعقوبي، أما البكري فيكتفي بالقول بأن من سكان طبنة العرب، وكذا بمدينة تهوذه وميلة ، وقسم طولقة إلى ثلاث مدن سكن إحداها القيسية وأخرى اليمنية والثالثة للمولدين[4]، ويذكر الإدريسي جملة وجود العرب في كل من ميلة وباغاية، ويـصف سكان طبنة بالأخلاط[5]، قد يكون منهم العرب.

1- ابن عذارى ، المصدر السابق،ج1، ص 70.
2- ابن عذارى، المصدر نفسه، ص123.
3- اليعقوبي، البلدان، ص190-191.
4- البكري، المصدر السابق، ص 50، 51، 64، 72.
5- أنظر المصدر السابق، ص263، 265، 276.

وبناءا على الوصف الذي قدمه الجغرافيون لكيفية انتشار العرب في بلاد الزاب يتـــبين أمران، الأول أنهم إما كانوا الغالبية في تلك المدن مما يرجح أنهم خلفوا الروم الذين انسحبوا بعد سيطرة المسلمين على البلاد، أو شكلوا جزءا من النسيج الاجتماعي في الأخرى.

وانطلاقا مما سبق يمكن القول أن العرب لم يعتبروا أنفسهم غرباء، بل جزءا من تركيبـــة هذا المجتمع، وهو الأمر الذي سمح لهم بالتغلغل وسط هذا لنسيج، العيش بينـــهم وبالتـــالي التأثير والتأثر بهم، خاصة إذا عدنا إلى الخلفية التي جاء بها المسلمون وهي نشر الإسلام.

ولكن في المقابل وتحت هذا المسمى احتكروا شؤون الحكم وسيطروا على السلطة، بل وتصارعوا فيما بينهم عليها مما تسبب في إضعاف وجودهم السياسي أواخر العصر الأموي[1]، كما سبق ذلك في بلاد الزاب في عصر الولاة، مما سهل على الفرس انتزاع هذه المكانة منهم زمن العباسيين، وصولا إلى إنشاء دولة لهم في البلاد ثم الاستقلال كليـــا عـــن الخلافـــة في المشرق.

ج-**أهل الذمة:**

لم تكن الديانة الإسلامية هي الأولى التي طرقت المنطقة كما هو معلوم، فقد ســـبقتها اليهودية والنصرانية اللتان كانتا منتشرتين بين ظهراني سكان بلاد الزب، وقد حفظ الـــدين الجديد لمن أبقى عليهما دينا له حقوقه.

ويتضح من خلال الإشارات التي يوردها المؤرخون أن علاقات فلنقل طبيعية قامـــت بين المسلمين واليهود، وذلك بحكم الضرورة والحاجة وكذا طبيعة الإنسان، ففي ترجمة أبي العرب للعالم إسماعيل بن رباح الجزري(ت212هـــ/827م) أن قوما من الجزيرة- على الأرجح جربة-، دعوا يهوديا إلى الطعام فجلس وأكل معهم، لكنهم رفعوه عنه وعزلوه في غرفة لما حضر إسماعيل، لكنه عرف بالأمر وأنكر عليهم الكل مع يهودي.[2]

1- محمود إسماعيل عبد الرازق، المرجع السابق، ص285.
2- أنظر طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ج2، ص68.

وبناءا عليه فقد انقسم موفق المسلمين من اليهود بين متـــودد لا يـــرى بأســا في أن يشاركه طعامه، وبين رافض لهذا المستوى من العلاقة، وقد تكون هذه لمواقف قريبة من واقع بلاد الزاب على اعتبار أنها تضم فئات من مختلف الديانات والعقائد، أي أنه من غير المستبعد أن تقع مواقف مشابهة ومختلفة، هذا على المستوى الشعبي.

أما على صعيد السلطة فقد يختلف الأمر، إذ يذكر المالكي أ ن القاضي أحمد بن طالب جعل على أكتاف اليهود رقاعا بيضاء في كل رقعة صورة قرد، وعلى أبوب منازلهم ألواحا مسمرة عليها صورة قردة[1]زمن الأغالبة، وذلك تمييزا لهم عن المسلمين، وقد يكـــون ذلـــك خشية أن يتداولوا مع المسلمين معاملات يحرمها الإسلام مع الذمي.

أضف إلى ذلك التجارة والصناعة اللتان لطالما برع فيها اليهود ، فقد بكون من باب اتقاء غشهم فيها، وتغيب أي إشارت مباشرة عن الزاب في المصادر المتاحة، غير أن الواقـــع الاجتماعي لبلاد إفريقية والمغرب الأوسط عموما متشابهة، مما يشجع على إسقاط مثل هذه الإشارات على بلاد الزاب .

وعلى كل حال فإن نفس لأمر يمكن قوله على النصارى إذ يصفهم البكري بالمولدين المنتشرين في أربعة مدن هي، طولقة، بسكرة، ميلة وإحدى مدن بنطيوس الثلاث[2]، ويرجح هوبكتز أنهم من ذرية السكان الذين قطنوا المنطقة قبل الإسلام مهم اختلف جنسهم، وكانوا على دين لنصرانية ثم أسلموا لكنهم احتفظوا بعاداتهم الجماعية[3]، مما أدخلهم في منازعـــات مستمرة مع العرب الوافدين.[4]

وعموما فقد كان بوسع النصرانية أن تستمر في بلاد الزاب لأن أتباعها عوملوا بحسن نية في هذه الفترة[5]، على أنهم لم يستثنوا زمن الأغالبة من الإجراء لذي اتخذه ابن طالب مع

1- أنظر المصدر السابق، ج1، ص476-477.
2- أنظر المصدر السابق، ص 51، 52، 64، 72.
3- ج.ف.ب هوبكنز، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تر، أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط2، الدار البيضاء، 1420هـ، 1999م، ص98.
4- البكري، المصدر السابق، ص 51.
5- هوبكنز، المرجع السابق، ص101.

اليهود، ورسموا بدل صورة القرد صورة خنزير[1]، وقد يكون هذا الإجـراء شمـل كامـل الولايات التابعة لحكم الأغالبة، والزاب من ضمنها.

وأما ابن عذارى فيعطينا إشارة عن احتمال تولي النصارى لمناصب مرموقة في الدولة، عندما ذكر أن إبراهيم بن أحمد عرض ديوان الخراج على نـصراني مقابـل أن يـدخل في الإسلام، لكنه رفض فقتله.[2]

د-**العبيد**:

أما طبقة العبيد فقد شكلوا ظاهرة انتشرت عبر كامل العالم القديم ، و لم يستثنى منها أي شعب، ومع أن الإشارات تغيب باستمرار عما يخص منها بلاد الزاب، إلا أن ذكرهم لا يغيب في الدول الثلاث التي تعاقبت عليها.

فقد اتخذ إبراهيم بن الأغلب بن سالم العبيد لحمل سلاحه واستكثر منهم، واستغنى في المقابل عن استعمال الرعية في أموره، وقتل إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ثلاثمائـة خادم في خادم رمى له منديل، واختار زيادة الله بن الأغلب ألف صقلبي لحمل متاعه حـين غادر إفريقية.[3]

وهذه صورة واضحة عن الأعداد الكبيرة من العبيد الذين كانوا يعيشون في قـصور الأمراء، وعلى الأرجح أنهم كانوا كذلك في بيوت العمال و العلماء وعلية القوم، كالفقيـه ابن طالب الذي لم يكتفي بامتلاكهم بل كان يهديهم أيضا.[4]

وكذلك كان الأمر بالنسبة للرستميين، فقد وجد الوفد الأول الذي جاء من المـشرق إلى عبد الرحمن بن رستم حاملا الأموال، غلاما يعجن الطين ويناوله لعبد الـرحمن، ورأى الوفد الثاني أن العبيد والخدم قد كثروا[5] .

1- المالكي،المصدر السابق، ج2، ص476-477.
2- أنظر المصدر السابق، ص122.
3- لسان الدين لخطيب، المصدر السابق، ج2، ص 297، 306، 314.
4- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص475، القاضي عياض، المدارك، ج4، ص315.
5- ابن الصغير، المصدر السابق، ص33، 38.

وعلى هذا النحو فكلما اتسعت حياة الناس زادت حاجتهم إلى الخدم، وإذا كان مجال عملهم قد تجاوز الخدمة في البيوت إلى العمل في الضياع والانخراط في الجيوش[1]، فإن هـــذا الأمر تجلى في أوضح أشكاله في عهد الفاطميين، فقد اتخذ عبيد الله وحده اثني عشر ألــف مملوك بين رومي وحبشي[2]، وقام بتقسيمهم إلى طبقات فجعل على سبيل المثال للـــصقالبة رؤساء منهم[3]، وأدناهم منه فكان ينتدبهم لاستقصاء حقائق المشاكل التي كانت تحدث بين الرعية.[4]

كما أشرك الفاطميون العبيد في حروبهم كحربهم على أبي يزيد، ومنحوا بعضهم قيادة الجيوش مع وجود كبار قادة كتامة، كما هو الشأن مع جوهر الصقلي.[5]

إن هذه النماذج عن الانتشار الكبير للعبيد في قصور الأمراء يمكن أن يعطي صورة ما عن تواجدهم في إقليم الزاب، في دور مختلف الفئات من بربر وعرب وأهل الذمة، فالظاهر أن وتيرة الحياة اليومية المتصاعدة جعلت من غير الممكن العيش من دون هذه الفئة أو التخلي عنها.

1- نريمان عبد الكريم، المرجع السابق، ص270-271.
2- لسان الدين الخطيب، المصدر السابق، ج1، ص233.
3-جوذر، المصدر السابق، ص37.
4- جوذر ، المصدر نفسه، ص37.
5- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ج11، ص246.

المبحث الثاني:العادات والتقاليد.

لقد خلفت الأجناس المختلفة المتعاقبة على بلاد الزاب تركيبة اجتماعية متباينة ، فبحكم التمازج الذي حدث بينها نتج هجين من الممارسات اليومية، تشكلت من خلاله الصورة العامة لعادات وتقاليد من سكنوا هذه المنطقة.

وإن كانت مرة بعد مرة المصادر لا تسعفنا بمعلومات مفيدة، ولذلك يتم الاعتماد على ما هو حاصل في المناطق المجاورة، وإسقاطها على الزاب، ومنها على سبيل المثال لا الحصر أو الترتيب:

أ-المؤاخاة:

وهي طقس رأينا الكاهنة تقوم به حين آخت بين ابنيها وأحد أسراها المسلمين، وسمته بالرضاع فقالت:" نحن جماعة البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به"[1]، فمزجت دقيق الشعير بالزيت وجعلته على صدرها ثم أطعمته لولديها والأسير.

وهو أمر نجد له مثيلا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم حين آخى بين المهاجرين والأنصار لكن بطريقة مختلفة، ودون أن ينتج عن ذلك أي أمور أخرى كمسألة الإرث التي ذكرتها، وهي مخالفة للشريعة الإسلامية وبالتالي فمن الوارد أنها اختفت بعد انتشار الإسلام.

ب-التنجيم والكهانة:

يبدو أن سكان بلاد الزاب كان لهم الاهتمام الكبير بهذه المسألة، فقد حكمتهم الكاهنة التي كانت تخرج عليهم ناشرة شعرها ضاربة صدرها لتخبرهم بالغيبيات[2]، واشتهر البيت الرستمي بالتنجيم فقد قال عبد الوهاب بن عبد الرحمن" معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعلم أين بات القمر"[3]، كما كان المعز مولعا بالتنجيم[4]، وتبقى هذه اللمحات هي ما يتوفر بين أيدينا والتي يمكننا أن نسقطها على بلاد الزاب على استنادا إلى البيئة المشتركة.

1- ابن عذارى، المصدر السابق،ج1، ص37.
2- ابن عذارى، المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
3- الدرجيني، ج1، ص32.
4- أنظر مثلا، القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ج15، ص326-327.

ج-تقبيل اليد:

انتشرت هذه العادة عبر كامل بلاد المغرب، فدلت الطأطأة على التقدير والاحتـــرام، ويذكر القاضي النعمان أنه خرج في إحدى المرات لاستقبال المعز فانحنى يقبـــل الأرض، ثم أومأ إليه المعز بيده فقبلها[1]، وهناك أثر لهذه العادة بقي منتشرا بين العجائز في وقتنا الحاضر.

د-الحمامات:

تعد من المظاهر الاجتماعية الشائعة الدالة على المستوى الاجتماعي الراقي، فكلمـــا كثرت في المدينة دل ذلك على مدى رقي أهلها، ولم يقتصر دورها على الاستحمام فقط بل استعملت للإستطباب أيضا، بالعيون التي يظنون أن بركتها تشفي المرضى كالتي تواجـــدت بميله[2].

هـــ-الختان الجماعي:

يتولى هذا الأمر أو يدعوا إليه ميسوري الحال من كبار التجار ورجال الدولة وحـــتى الأمراء، فقد دعا المعز إلى تنظيم ختان جماعي للصبيان في كامل البلاد الخاضـــعة لحكمـــه، بمناسبة ختان بنيه الثلاثة سنة 351هـــ/962م وتبع ذلك منح العطايا للصبيان المختونين.

وقد أعطى القاضي النعمان وصفا جميلا للجو الذي تمت فيه العملية، فقال:"والختانون في السرادقات على الكراسي وبين أيديهم المنابر لجلوس الصبيان، والقـــوم يمـــسكونهم في حجورهم ويذرون الذرارات الممسكة للدم على ختاناهم ويقفون في البخور ومـــاء الـــورد على رؤوسهم، ويرشوهم على وجوههم لما يعتريهم من الروع، والسند بأصناف الملاعب، قيام عليهم يلهونهم، ويصبحون من طهر منهم يزفون به إلى مترله"[3].

1- القاضي النعمان، المصدر نفسه،ج1، ص50.
2- البكري، المصدر السابق، ص59، 64.
3-المجالس والمسايرات، ج28، ص556.

وقد جعل هذا الوصف البديع من عملية الختان حفلا بهيجا، هذا بالإضافة إلى الأعطيات التي وزعت عليهم كل حسب مكانته الاجتماعية، وتبقى الإشارة إلى أن الصبيان هم من يختنون بمعنى أن العملية لم تكن تمس الفتيات حتى في ذلك الزمان.

و–استعمال البخور:

يبدو أن بلاد المغرب قد عرفت استعمال البخور، إما لتعطير المنازل أو المساجد، واعتقدت فئة منهم أنه طارد للأرواح الشريرة[1]، أو للاستعمال الشخصي كالبخور وماء الورد الذي عطر به الصبية المختونين[2].

ز–الزواج:

إذا كان الدين يوحد بعض طقوس الزواج إلا أن المستوى الاجتماعي والمادي للمتزوجين يلعب دورا هاما في خلق بعض الاختلافات، كأن يستدعي الحاكم أحد أفراد رعيته إلى مجلسه ليخطبه في ابنته[3]، أو تقتنى الجواري إلى حين يتمكن الرجل من تغطية تكاليف العرس ومتطلبات الحياة الزوجية وأهمها البيت[4].

وتبين الروايات أن الجهاز كان يقع على عاتق العروس وإن كان أهلها معسرون، فقد شكا رجل لابن طالب عدم قدرته على تجهيز ابنته، فجمع كل حلي وملابس ابنته ودفع بها إلى الرجل الفقير ليجهزها.[5]

ح–النياح على الموتى:

انتشرت النياحة على الموتى في البلاد، بل وكانت مهنة تحترفها بعض النساء اللائي يقمن بهذه المهمة في تجمعات وأمام الملأ، فقد نيح على عبيد الله الفاطمي في القيروان وجميع المدن التي كانت خاضعة للسلطان الفاطمي[6]، ورغم أن ذلك كان بأمر من القائم إلا أنه

1- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص321.
2- القاضي النعمان،المجالس والمسايرات، ج28، ص557.
3- ابن الصغير، المصدر السابق، ص52.
4- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ج28، ص543، 544.
5- القاضي عياض، المدارك، ج4، ص315.
6- الصنهاجي، المصدر السابق، ص27، الداعي إدريس، المصدر السابق، ص77.

طلب إلى جوذر أن يطلب من بيت من مات لهم شخص أن يرفعوا البكاء الذي نصبوا له في الطريق، لأن ذلك لا يصح إلا على الأمراء حسبه[1].

وأما المعز فقد أنكر هذه العادة وحاربها، وأمر بمعاقبة النائحـــات بالـــضرب الموجـــع والنداء عليهن والحبس الطويل، ومع ذلك لم تمتثل النائحات ونقلـــن عملـــهن إلى داخـــل البيوت، واستغرق أمر إيقافهن زمنا حتى استطاع القاضي النعمان من منعها[2].

ط-زيارة القبور:

نهى المنصور المعز على زيارة قبره والبكاء عليه بعد موته، واعتبرها من فعل الجهال[3]، الأمر الذي يعطي انطباعا أن زيارة القبور والبكاء سادة بين العامة، وترفع عنها عليه القـــوم خاصة بيت الفاطميين، فاختلفت بذلك حتى عند القبور وأمام الموت ردود أفعـــال النـــاس حسب التربية والتفكير وما تفرضه المكانة الاجتماعية.

ي-اللبـــاس:

تعود طبيعة اللباس وعدد القطع التي تلبس إلى المكانة الاجتماعية والعلمية للـــشخص، فقد تعرض البهلول بن راشد إلى الإهانة مرة من قبل خدم الأمير الأغلبي، بـــسبب مظهـــره الذي لا يدل على مكانته، فلم يخرج بعدها إلا بثياب حسنة[4]، وطلب القاضي سحنون من ابن طالب عندما كان صغيرا أن يتزيا بزي العلماء، فحلق رأسه ولبس ثيابهم[5].

ومن الوارد أن يكون متعارفا عليه في كامل البلاد ومنها الزاب، وقد وصف القاضي عياض ابن طالب بأنه كان فاخر الثياب، والذي يتكون من أكثر من قطعة ، فكان يتصدق بفروه وبعض كسوته التي عليه إذا مر برجل دون دثاره في فصل الشتاء، واســـتعمل ثوبـــا خاصا بالبيت.[6]

1- جوذر، المصدر السابق، ص43.
2- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ج27، ص534-538.
3- القاضي النعمان، المصدر نفسه، 5، ص131.
4- القاضي عياض، المدارك، ج3، ص90.
5- القاضي عياض، المصدر نفسه،ج4، ص310.
6-المصدر نفسه، ج4، ص309، 315.

وهذا الوصف ينطبق على ميسوري الحال لا الفقراء، ومع ذلك لم يكن كل العلمـــاء على هذه الهيئة الفاخرة من الثياب، فقد كان سحنون يتخشن في المأكل والملبس[1]، وكمظهر مكمل للباس ألف الناس الالتحاء كمظهر رجولي وجمالي، فقد وصف لسان الدين الخطيب محمد بن الأغلب بالكوسح لا لحية له كأنه خصي[2].

ك-المـــرأة:

عدى عن الكاهنة وحضورها السياسي قبيل وأثناء الفتح الإسلامي، لا تورد المصادر المتوفرة أي إشارات عن نساء من بلاد الزاب كان لهن دور سياسي أو علمي ما، واقتصرت على ذكر احترامها وتقدير مكانتها، وأن حقوقها كانت محفوظة من قبل الشرع مؤداه مـــن طرف الناس، فقد خصص القاضي ابن غانم(190هـــ/805م) زمن إبراهيم بن الأغلب للنساء ينظر في حاجاتهن.[3]

كما حظيت باهتمام من قبل الأمراء فقد أمر المعز القاضي النعمان باتخاذ مكان فسيح للقضاء حتى تتمكن النساء من بلوغه في استتار[4]، وهذا الوقوف يعني أمورا منها أن المـــرأة تمكنت من المطالبة بحقوقها سواء كانت متعلقة بحياتها الخاصة أو ربما تجارة تديرها هـــي أو بواسطة.

واحتلت الزوجة بمكانة أكبر وتقدير واحترام أكثر من الجارية، حـــين أعطيـــت لهـــا الأفضلية في إنجاب الولد، كما حدث مع ابني القاضي النعمان اللذان لم يرتضيا اتخاذ الولـــد من الجواري وتاقت نفسيهما إلى الزوجات[5]، ولكن هذا الأمر لم يكن بالقاعدة فقد شـــهد التاريخ الإسلامي ميلاد الكثير من الملوك والأمراء من إماء.

واستشيرت على الأقل في أمورها الخاصة، فقد استأذن القاضي ابن طالب ابنته في أن يتصدق بكل حليها وثيابها لرجل فقير لم يستطع تجهيز ابنته للزواج، على أن يعوض عليها[6]

1- المالكي، المصدر السابق، ص 345.
2- أنظر المصدر السابق، ص310.
3- الرقيق القيرواني، المصدر السابق، ص231.
4- القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، ج2، ص69-70.
5- القاضي النعمان ،المصدر نفسه،ج28، ص544.
6- القاضي عياض، المدارك، ج4، ص315.

المبحث الثالث: عوامل ازدهار الحياة العلمية في بلاد الزاب.

إذا كان الهدف الأساسي الذي جاء بالمسلمين إلى بلاد المغرب هو نشر الإسلام بين ظهراني أهله، فإن نفوس وعقول أولئك السكان قد تفتحت له واستقبلته، فقد تزايدت في فترات متلاحقة أعداد المنظمين من البربر لجيوش المسلمين في عمليات الفتح.[1]

وعلى اعتبار أن البربر لم يتعلموا إلا القليل في المراحل الأولى عن الدين وتشريعاته، فمن الوارد أن فئات منهم بدأت تتعلم اللغة العربية وهي مفتاح التعامل مع الدين الجديد، وكذا مع حامليه من العرب الذين لم يدخروا جهدا في سبيل تفقيه المنظمين حديثا لدائرة الإسلام.

وقد تجلت تلك الجهود من خلال صور عدة منها ما قام به قادة الفتوح، وعلى رأسها اختطاط القيروان وبناء جامعها والذي كان اللبنة الأولى في هذا الاتجاه، خاصة وأن جملة من الصحابة والتابعين قد شاركوا في عمليات الفتح ثم استقروا في المنطقة.[2]

وتعززت تلك المجهودات بالبعثة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى المنطقة وعلى رأسهم إسماعيل بن أبي المهاجر واليا، ليعلموا الناس الحلال والحرام والذين انتشروا في مناطق مختلفة[3]، فكانت فرصته حقيقية أتاحت للسكان التعرف على مبادئ الإسلام وتشريعاته ممن تلقوا الدين من منبعه.[4]

وان كانت أحداث هذه الفترة تغيب تأثيراتها المباشرة على بلاد الزاب، فإن القوة الناعمة للإسلام وسماحته لابد أنها قد وصلت إليها ولامست قلوب سكانها، وأخذت تحرك عقولهم للتفكير فيما وصلهم عن الحديث الذي ينشره الوافدون الجدد بين البربر.

1- أبو القاسم محمد كرو، عصر القيروان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط2، دمشق، 1989م، ص14.
2- على عبد السلام سيد أحمد، ورقات تاريخية عن حياة البربر الدينية والخلقية في المغرب العربي، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج30-31، مطبعة الجبلاوي، شبرا، 1405هـ، 1984م، ص120.
3- بن عذارى ، المصدر السابق،ج1، ص 48.
4- علي عبد السلام سيد أحمد، المرجع السابق، ص 116 – 117.

فقد كان لهذه البعثة الأثر البعيد في مسار الحياة الدينية والعلمية لهم، فلم ينحصر عملها على بيان حقيقة الدين الجديد وتعاليمه، بل امتد الى تعليمهم الكتابة والقراءة، وقواعد اللغة العربية[1]

وإذا كانت المصادر المتوفرة لا تسعفنا في معرفة ما إذا كان لأحد أعضاء هذه البعثة – على الأقل – نشاط في بلاد الزاب أو على تخومها الشمالية أو الشرقية، فإن الأمر الذي لا يمكن نفيه، هو تخرج علماء على يد الرعيل الأول من العلماء الذين تتلمذوا وأخذوا عن هؤلاء التابعين من أمثال عبد الله بن غافر، والبهلول بن راشد ورباح بن يزيد وأسد بن الفرات، وغيرهم الكثير.

فكان القرن الثاني للهجرة مستهل ظهور علماء وفقهاء من أهل البلاد، والذين سيلعبون دورا بارزا في نهضة البلاد الدينية والعلمية، و تمتد تأثيراته إلى بلاد الزاب ومن اختار من سكانها هذا السبيل نهجا لحياته، خاصة مع النشاط الذي عرفته حركة الخوارج في المنطقة بعد ما لاقته في المشرق من قمع، وأملا في نشر أفكارهم، وهو ما كان[2].

ولذلك أعطيت الحركة الفكرية والعلمية للبلاد زخما غير معهود بدءا من زمن الولاة، خاصة وأن قادة الفتوح في أغلبهم من مكة، وكانت جيوشهم تنطلق من المدينة حيث مقر الخلافة، وهم من حمل مبادئ الدين الإسلامي من مهدها لينشروها في بلاد المغرب[3]. فكانت الحركة العلمية متماشية ومتناغمة مع الأحداث السياسية تشتبك لتفترق، وتفترق لتشتبك مرة أخرى إذ يخدم كل طرف الآخر ويغذيه.

وهو ما تجسد بصورة جلية في طبنة من أرض الزاب حين حاصرتها جيوش الخوارج من كل جانب، ومقاومتها لهم بقيادة عمر بن حفص الممثل للسلطة السياسية للسنة فكانت حصنا للسنة زمن الولاة ثم للأغالبة من بعد ذلك، حتى تمكن الداعية الشيعي من اقتحامها[4].

1- عبد العزيز المجدوب، المرجع السابق، ص 23.
2- عبد الحميد حاجيات، التطور المذهبي، ص 45.
3-ألفرد بل، المرجع السابق، ص 92 – 93.
4- موسى لقبال، طبنة مدينة الزاب، ص89 – 90.

وقد كانت المذاهب زمن الدول المستقلة "الأغالبة، الرستميين، الفاطميين" تفرض بحدة السيف أحيانا، خاصة زمن الفاطميين، هذا الظرف انبت صراعا سياسيا ونقاشا دينيا وعلميا واسعا[1].

وتماشيا مع الأحداث السياسية والنزاعات المذهبية ظهرت حركة علمية نشطة في إفريقية والمغرب الأوسط، فقد دعت كثرة الآراء التي، بدأت تنتشر في بلاد المغرب، الرعيل الأول من العلماء الذين تخرجوا على يد بعثة عمر إلى الرحلة نحو المشرق، وقد كان لهم الحظ أن يصقلوا معارفهم ويزيدوها عمقا وتوسعا على أيدي من تبقى من صحابة رسول الله.[2]

ومن المنطلق كان صراعهم شديدا مع أصحاب المذاهب الدينية والفرق الكلامية الأخرى، وعلى هذا الأساس قسم الباحثون الصراع بين المالكية والفرق الكلامية، والمالكية والإباضية، والشيعة، أي منذ عصر الولاة وحتى عصر الدولة الفاطمية، وقد شهدت هذه الحركة العلمية أزهى عصورها زمن الأغالبة ذلك أنهم تبنوا مختلف المذاهب الفكرية وشجعوها فشاع وجود المعتزلة، ونشر الخوارج أفكارهم من خلال الصفرية والإباضية وانتحل البيت الاغلبي المذهب الحنفي على اعتبار أنه مذهب الدولة العباسية وسادت المالكية لدى عامة الشعب[3] .

ومن العوامل التي غذت الحركة العلمية في بلاد الزاب الرحلة العلمية التي ميزت الحضارة الإسلامية عبر عصور مختلفة عموما ، والتي كانت متيسرة لجميع الفئات وبين مختلف الأقطار الإسلامية لغياب العوائق والحواجز ووحدة المسلمين، فسهل الاجتماع بالعلماء في المساجد والمدارس، هذا بالإضافة إلى الرحلات التجارية وقوافل الحج، والتي عززت مجتمعة التواصل الثقافي بين علماء العالم الإسلامي جملة.[4]

1 - أبو القاسم محمد كرو، المرجع السابق، ص 15.
2- عبد العزيز المجدوب، المرجع السابق، ص 35.
3- عبد العزيز المجدوب، المرجع نفسه، ص 65.
4- نجيب بن خيرة، الحياة العلمية في الدويلات الإسلامية بالمشرق (خراسان وبلاد ما وراء النهر) بين القرنين الثالث والخامس الهجري من 205 هـ - 432 هـ / 820 م – 1040م، دكتوراه جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، فسنطينة، 1424هـ -1425هـ / 2003م – 2004م، ص 134 – 137.

وأما الحافز الذي شجع العلماء على الرحلة لطلب العلم فينقسم إلى جانبين الأول متعلق بتوافر المساجد والجوامع والمدارس، والربط والزوايا، والخوانق التي تستضيفهم دون مقابل، والجانب الآخر هو أن العلماء اعتبروا التعليم والتحديث والتدريس سبة لا يتقاضون عليها أجرا[1]، وسنرى لاحقا كيف أن مجموعة كبيرة من علماء الزاب ارتحلوا مشرقا ومغربا، طلبا للعلم.

بقيت الإشارة إلى عامل آخر قد يكون مفتاح ازدهار الحياة العلمية ونشاطها هو اهتمام وشغف الحكام بالعلم زمن الدول المستقلة منهم إبراهيم الأغلب الذي شغف بالعلم ومصاحبة العلماء[2]، وهذا إنما على سبيل المثال لا الحصر وهو ما سيتجلى عندما يتم التطرق إلى مجالس العلم والمناظرات.

وعلى اعتبار أن العديد منهم اعتقدوا أن وصال العلماء شارة من شارات الملك العظيم، قدموهم في مجالسهم وأحاطوا أنفسهم بجو أدبي وعلمي، وكانت هذه المجالس تزهوا بالعلماء بقدر اهتمام الحاكم أو الأمير بالعلم.[3]

وإذا قمنا بإسقاط هذا الجو على بلاد الزاب، فإننا نرى أن محورية هذه المنطقة في حياة الدول الثلاث المتعاقبة عليها، لابد أنها رفعت مكانتها العلمية بحكم الصراعات المذهبية والكلامية القائمة، كما أن العمال عادة ما يتأسون بأمرائهم في مجالسهم ودليل ذلك العدد العديد من علماء المنطقة الذين اشتهروا، وفي المقابل سنرى أن كانت كل هذه العوامل قد أثرت في حركة الكتابة والتأليف، ونشر العلوم والآداب وتنمية مدارك العلماء الفكرية، بل ونشر التعليم بين العامة، ولذا كانت بلاد الزاب منطقة إنجاب وجذب العلماء.[4]

أ- علمـــاء طبنة:

إن الحركة العلمية التي شهدتها بلاد الزاب زمن الأغالبة، محاطة بالاهتمام الذي أولاه أمراءها للعلم والعلماء، بالإضافة إلى العوامل السابق ذكرها جعلتها متعددة الاتجاهات

1- بجيب بن خيرة، المرجع السابق، ص 137 – 138.
2- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص 66.
3- نجيب بن خيرة، المرجع السابق، ص 143.
4- المرجع نفسه، ص 148.

والاختصاصات، فلم تعد مقتصرة على علوم الدين واللغة[1]، وفي هذه البيئة أنجبت طبنة أعلاما في الفقه والأدب واللغة والعلوم، فكانوا الواجهة التي دافعت المالكية من خلالها على وجودها في المنطقة حتى في زمن الفاطميين الذين حاولوا إبعاد الناس عن المذهب المالكي من خلال إيذاء علمائهم. وهكذا يبدو أن أسر طبنية غادرت المدينة إلى وجهات مختلفة مشرق ومغربا.[2]

أولا: من علماء طبنة في المغرب.

أ – أحمد بن فروخ الطبني: عايش الفترة التي دخل فيها الشيعي رقادة والقيروان، والظاهر أنه تولى بعض المهام[3].

ب – إبراهيم الطبني: أشركه محمد بن الأغلب مع سحنون بن سعيد(160 – 240 هـ/776–854م) في القضاء لفترة، وقد كان سحنون ناكرا لذلك، ورفع شكوى للأمير الأغلبي بذلك.[4]

ج – حمدون بن عبد الله أبو عبد الله المعروف بابن الطبنة: ولي له قضاء طبنة، له سماع من سحنون وصحبة طويلة، ولي قضاء باجة، من أهل العناية بالعلم، معدود في الفقهاء[5].

ثانيا: من علماء طبنة في الأندلس.

أ – محمد بن الحسين بن محمد بن أسد بن محمد بن إبراهيم بن زياد بن كعب بن مالك التميمي الحصاني الطبني الزابي ولد سنة 300 هـ/912 م، من بيت أدب وشعر وجلالة ورياسة، دخل الأندلس سنة 331 هـ/942م زمن المستنصر، ولي الشرطة، توفي سنة 394 هـ/1003م، كان أبناءه مشهورون بالأدب والفضل[6]، أما ابن الفرضي فيورد نسبه بالشكل التالي: أحمد بن الحسين بن محمد بن أسد بن محمد بن إبراهيم بن

1- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص 65 – 66.
2- موسى لقبال، طبنة مدينة الزاب، ص 98 – 99.
3- موسى لقبال، المرجع نفسه، ص 100.
4- القاضي عياض، المدارك، ج4، ص 68 – 69.
5- القاضي عياض، تراجم أغلبية، تح محمد طالبي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، نشر الجامعة التونسية، 1968، ص373 – 374، محمد بن الحارث بن أسد الخشني، كتاب طبقات علماء افريقية، دار الكتاب اللبناني،(د ط)، بيروت،(د ت)، ص 162.
6- أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ت روحية عبد الرحمن السويفي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1417 هـ - 1997 م، ص 58 – 59.

زياد بن كعب بن مالك التميمي الحماني من بني سعد بن زيد مناة بن تميم بـــن مـــر الطبني من أهل طبنة، يكنى بابي عمر، سمع بقرطبة كما ارتحل إلى المـــشرق ســـنة 342 هـــ/953م، حدث وكتب عنه أحاديث، توفي بقرطبة في 3 محرم 390 هـــ/999[1]، وهو عند ابن الأثير محمد بن الحسين التميمي الزابي الطبني، شاعر مكثر، عاش أيام الحكـــم بن عبد الرحمان المستنصر[2]، ويرجح الحموي كفة كل من الطبني وابن الأثير فيـــسميه محمد بن الحسن التميمي الزابي الطبني، عاش أيام المستنصر[3]، وكذا عند الـــسيوطي[4]، واستنادا إلى ما سبق فإن محمد بن الحسن الطبني هو الأرجح.

ب– موسى الزابي: له أحاديث وقراءات.[5]

ثالثا: من علماء طبنة في المشرق.

أ– عبد الله بن محمد بن أبي عباد بن كثير الطبني التميمي: كنيته أبو أحمد، جده أبو معمر المحدث المشهور بإفريقية، من أصحاب سحنون، كان من فقهاء المدينة عالم باللغة والنحو والفصاحة، توفي سنة 299هـــ/911م وعمره 87 سنة[6]، مما يعني أنه ولد على الأرجح سنة 212هـــ/827م.

ب– أبو محمد القاسم بن على بن معاوية بن الوليد الطبني القيرواني: سافر إلى بغداد وسمع الحديث بها وله شعر، ذريته بمصر[7].

ج– علي بن منصور الطبني[8].

د– أبو الفضل عطية بن علي بن الحسن بن يوسف القرشي الطبني القيرواني، سكن بغداد وسمع بمكة[9].

1- أبو الوليد عبد الله بن يوسف بن نصير الأزدي المعروف بابن الفرضي، ت روحية عبد الرحمان السويفي، تاريخ علماء الأندلس، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان 1417 هـ - 1997م، ص 62.

2- عز الدين بن الأثير الجزري، اللباب في تهذيب الأنساب، ج2، دار صادر، بيروت، 1400 هـ - 1980م، ص 51.

3- الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 139.

4-جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، لب اللباب في تحرير الأنساب، ت محمد أحمد عبد العزيز ، أشرف أحمد عبد العزيز،ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1411 هـ - 1991م، ص 88.

5- ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، ص51.

6- القاصي عياض، تراجم أغلبية، ص314-315.

7- الحموي، المصدر السابق، ج4، ص24.

8-الحموي، المصدر نفسه، ج4، ص24.

9- ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، ج2، ص275، الحموي، المصدر السابق، ج4، ص24.

ومن علماء طبنة أيضا محمد بن يحي بن محمد بن الحسين الحماني السعدي الطبني أبو عبد الله، من بيت علم وأدب وشعر ورياسة، من بني سعد بن زيد من مناة بن تميم بن مر بن أدد[1] ، وأخوه إبراهيم بن يحي بن محمد بن الحسين التميمي الطبني أبو بكر الوزير[2]

ب-الحلقات العلمية:

لقد كان لانتشار آراء الخوارج وبقية الفرق والمذاهب الإسلامية في بلاد المغرب عموما، أثرا كبيرا في تنشيط الحركة الفكرية، خاصة بين الخوارج والسنة المالكية والمعتزلة ثم الشيعة[3] وعلى الرغم من أن الترحاب الكبير كان من نصيب المذهب المالكي بين العامة من سكان إفريقية وبلاد المغرب.

إلا أن هذا لم يعني الغياب الكلي لبقية المذاهب، فالحنفية كانت مذهب الأغالبة الرسمي على اعتبار تبعيتهم للخلافة العباسية في المشرق، وعمل بعدهم الفاطميون على نشر المذهب الشيعي بشتى الطرق تراوحت بين الدعاية والقوة[4]، وفي ضوء هذه الحركية الدينية والفكرية انتشرت تفاعلاتها وامتدت لتشمل أقطار بلاد المغرب كلها، ومنها بلاد الزاب متجسدة في الحلقات العلمية التي كانت تعقد بألوان مختلفة منها:

1-حلقات الدرس في المساجد و الجوامع:

يعد تركيز العرب على نشر الإسلام وتعليم البربر العربية منذ زمن مبكر، السبب وراء صب الاهتمام على العلوم الدينية من قبل الفقهاء والمحدثين، والذين أخذت أعدادهم في التزايد بشكل مستمر[5]، وقد كان المسجد المنبر الذي نشطوا من خلاله الحركة العلمية وبعثوا الحياة الثقافية[6].

1- أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي الأندلسي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ت روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية،ط1، بيروت، لبنان، 1417هـ، 1997م، ص88، الضبي، المصدر السابق، ص125-126.
2- الحميدي، المصدر نفسه، ص140، الضبي، المصدر السابق، ص 193.
3- محمود إسماعيل عبد الرزاق، المرجع السابق، ص293-294.
4- أبو القاسم محمد كرو، المرجع السابق، ص29.
5-أبو القاسم محمد كرو، المرجع نفسه، ص32.
6- بن خيرة، المرجع السابق، ص160.

ولما كانت طبنة حاضرة بلاد الزاب منذ أواخر القرن الثاني للهجرة وحيث يقيم العامل والقاضي وقائد الحامية[1]، فمن المرجح أنها كانت محط اجتماع فقهاء وعلماء عملوا على نشر الدين الإسلامي انطلاقا من مساجدها، فبقدر أهمية المدينة تكثر المساجد بمعنى كثرة المعلمين والمتعلمين[2].

2-الكتاتيب:

اتخذت عبر مختلف البلاد بعد أن ضاقت المساجد بطلبة العلم، وانتقل المعلمون إلى تعليم الصبية أيضا، وهذه لفئة مكن لها أن تحضر مجالس العلم في المساجد لعدم تحرزهم من النجاسات، وقد كانت في بدايتها من إنشاء المعلمين أنفسهم وتركت الرقابة لدينهم وخلقهم[3]، ومن المرجح أن بلاد الزاب قد عرفت هذا النمط من المؤسسات التعليمية، لأن الحركة العلمية كانت نشطة بها بدليل ما سبق ذكره من علماء منسوبين إليها.

3-المجالس والمناظرات:

إذا كانت المناظرة هي محاججة عقلية يتهيأ لها المتناظرون، فإن سبب انتشارها في العالم الإسلامي وشيوعها خاصة في العصر العباسي، هو ظهور علم الكلام الذي يبحث في العقائد بالأدلة العقلية والرد على المخالفين.[4]

ونظرا لطبيعة تكوين الرعيل الأول من علماء إفريقية الحجازية، وعلى يد التابعين في بلادهم ورحيلهم إلى الحجاز لتوسيع مداركهم، فقد أصبحت إفريقية -كما سبق الذكر- مهدا جديدا للمالكية منذ ق2هـ ، بدأت تظهر في بلاد المغرب عموما وكذا بلاد الزاب التفاعلات ذاتها التي برزت في المشرق بين مختلف المذاهب[5].

وإذا كانت كتب الطبقات تزخر بنماذج للمناظرات التي كانت تقام للبحث في المسائل الكلامية والفقهية والتشريعية، بين المالكية وباقي المذاهب لعلماء وفقهاء إفريقية في

1- موسى لقبال، طبنة مدينة الزاب...، ص97.
2- بن خيرة، المرجع السابق، ص162.
3- بن خيرة، المرجع نفسه، ص165.
4-نفسه، ص222.
5- ممدوح حسين، المرجع السابق، ص70،أنظر أيضا عبد العزيز المجذوب، المرجع السابق، ص135.

الفترة الزمنية لهذا البحث، إلا أن تراجم علماء الزاب تغيب عنها، ورغم ذلك لا يمكن إنكار وجودها خاصة أنها كانت منطقة تماس مباشر سياسي ومذهبي-كما مر في الجانب السياسي-، خاصة زمن الأغالبة والفاطميين، أين حاول مذهب الدولة منافسة المذهب المنتشر بين الناس، حيث أنه من أنسب السبل لإقناعهم بتغيير مذهبهم هي محاججة أئمتهم وعلمائهم، لكن ذلك لم يأتي بالنتائج المرجوة على مايبدو.

الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة يمكن الخروج بجملة من الاستنتاجات هي:

1-إذا كان المدلول اللغوي يعني الربوة التي يسيل منها الماء، فإن التسمية لم تخطــئ مكانهـــا حين اختارت بلاد الزاب في المغرب الأوسط مستقرا لها، فقد دلت الدراسة الاقتــصادية أن المنطقة كانت اسما على مسمى و إذا كان مصطلح العالم قرية صغيرة حديثا نسبيا، إلا أنه يمكن أن يشمل جميع العصور والمراحل التاريخية فقد كان التفاعل بين حضارات العالم قائما منذ القدم، متجسدا في مناحي مختلفة، التأثر والتأثير اللغوي حين تبين أن مصطلح الزاب جاء إما من أصل فارسي أو روماني أو ربما حتى عربي، فقد انتقل مـــن إحـــدى الحضارات إلى الأخريات.

2-كان للحدود الطبيعية والسياسية والإستراتيجية لبلاد الزاب الأثر الواضح والبالغ في رسم ملامحها عبر تاريخ طويل، كما لم تعرف معنى الثبات فقد تمددت وتقلــصت حــسب موازين القوى التي كانت سائدة.

3-عرف المجتمع الزابي قبيل الفتح الإسلامي تركيبة اجتماعية متنوعة الأعراق، تنـــافرت في أحيان وتمازجت وتزاوجت في أحيان أخرى، لكن في المقابل عرفت هذه التركيبـــة مـــا يشبه العقد الاجتماعي بحيث اختصت في أغلب الأحيان كل فئة بمناطق نفوذها، فقـــد خلق حياة اجتماعية ثرية من حيث العادات والمعتقدات ونمط المعيشة.

4-اعتبرت بلاد الزاب قبل الفتح الإسلامي منطقة حيوية من جوانب عدة جعلت السلطات المتوالية عليها تحرص على إبقائها تحت السيطرة بوسائل شتى و قد كان من أهم أسباب تمسك البيزنطيين ومن قبلهم بالبلاد الإمكانيات الاقتصادية المعتبرة التي توفرت فيها.

5-عانى المسلمون الكثير في سبيل فتح بلاد الزاب، فقد كانت حصنا منيعا يصعب اختراقـــه لما حوته من فئات مختلفة لكنها متفقة على أنها لا تريد وافدين جدد، خاصة وأن المسلمين قد سوَقوا لأنفسهم صورة سلبية بين أهالي البلاد مع بداية الفـــتح، فكلفـــت الخلافـــة الإسلامية قادة من الوزن الثقيل، لكنها في الوقت ذاته أعطتها صورة واضحة المعالم عما ينتظرها.

6-أكسبت هذه الأرض القادة المسلمين خبرات جديدة وكثيرة، لعل من بينها أن الـــسبيل الوحيد للسيطرة على البربر هو صهرهم في المجتمع الإسلامي بإدخـــالهم في الجيـــوش وتوليتهم للمناصب، ولكن في المقابل لم يعيها، الولاة الذين المتعاقبون على حكمها ، و لم يستمروا في النهج الذي بدءوا برسمه فكلفت الكثير منهم مناصبهم وحياتهم.

7-لعل الأمر الذي جر الوبال على الولاة التعصب الأموي في الحكم والإدارة، وكذا نقلهم للصراع القبلي العربي إلى أرض لا تزال هشة تحت أقدامهم، وعلم الخـــوارج أن بـــلاد الزاب هي نقطة ضعف وقوة عاصمة الولاية فهي خاصرتها، إن كانت تحـــت ســـيطرتها أعانتها على الوقوف ضد كل معارضة، وإن خرجت من يدها أقعـــدتها عـــن الحركـــة وخلطت كل أوراقها في باقي مناطق إفريقية.

8-استطاع الولاة العباسيون إعادة شيء من التوازن بعد أن فهموا الدرس جيدا من تجربـــة الأمويين، فكان هدفهم الأول إحكام القبضة على بلاد الزاب وإن كان الأمـــر صـــعبا بالنسبة لقبائلها.

9-اضطرت الخلافة العباسية رغم كل جهودها وتحت وطأة الحروب المتتالية إلى التنازل عن إفريقية للأغالبة، والذين حاولوا طوال فترة حكمهم إبقاء بلاد الزاب في قبـــضتهم، وفي المقابل عمل الرستميون على من خلال للعب على وتر المذهبية مع قبائلها.

10-حملت قبائل بلاد الزاب العصا من الوسط بحيث لم تمكن لكل من الأغالبة و الرستميين السيطرة الكلية على بلاد الزاب.

11-رغم أن بلاد الزاب كانت خاضعة لسلطة الأغالبة إلا أنهم لم يتمكنوا من الدفاع عنـــها ضد الزحف الشيعي، كما عجزت القبائل عن درئه وذلك عائد -ربما- لعدم دخـــول زناتة في الصراع منذ البداية، والتي يبدو أنها اعتقدت أنه لا يشكل خطرا عليها.

12- لم تفتر القبائل الزناتية وظلت تقض مضاجع الشيعة طوال فترة تواجدهم ببلاد المغرب، وقد تجسدت أهم وأخطر محاولة للقضاء على الوجود الفاطمي في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد.

13-لكن في المقابل عانت الزاب الكثير على يد الخلفاء الفاطميين أثناء وبعد الثورة بســبب هذا الدعم، هذا بالإضافة إلى ماخلفته من آثار سياسية واقتصادية واجتماعية وخيمة على سكان بلاد الزاب، وتضررت الزراعة والتجارة جراء الإمداد المتواصل للثوار بالمؤن مــن جهة، وكثرة المعارك التي جعلت السبل غير آمنة من جهة أخرى، وتلاشت كل القــيم والأعراف فسبيت الحرائر وهتكت الأعراض وهدمت العمائر.

14-وفي المقابل منحت الثورة أملا للطبقات المسحوقة في إمكانية الوصول إلى الحكم وتغيير النظم القمعية.

15-أدى تنوع البيئة الطبيعية بلاد الزاب من الشمال إلى الجنوب إلى تنوع مــصادر الميــاه، وبالتالي غنى في المزروعات،أي نشوء صناعات مختلفة ارتبطت بها، واستحدثت أخــرى تماشت وتناسبت مع رقي وتحسن المستوى المعيشي.

16-عُدت بلاد الزاب في هذه المرحلة التاريخية إحدى حلقات الوصــل التجاريــة الهامــة، فارتبطت بشبكة هامة من الطرق ومع مراكز تجارية مختلفة مــشرقا ومغربــا، وحملــت القوافل من وإلى الزاب منتجات ضرورية وكمالية متنوعة ومتفاوتة القيمة.

17-خضعت أسعار أسواق بلاد الزاب لأحكام السوق وقانون العرض والطلب، وتعامــل تجار بلاد الزاب بمكاييل وموازين كانت منتشرة ومتعارفا عليها في بلا المغرب.

18-إذا كان المجتمع الزابي عبارة عن فسيفساء منذ ما فبل الفتح الإسلامي، فإنها زادت غنى بعناصر جديدة وفئات اجتماعية مختلفة، من قيسيين ويمنيين وشاميين وخراسانيين، مــن جند وقادة ، من علماء وتجار فقد نقل المجتمع الإسلامي غناه وتنوعه إلى هذه البلاد.

19- لم يعزل العرب أنفسهم عن البربر في القلاع كما فعل سابقوهم، بل امتزجوا وتزاوجوا في المجتمع الجديد وانصهروا فيه حتى أصبحوا قطعة أصيلة في فسيفساء هذا المجتمع.

20-حفظ الإسلام لأهل الذمة في بلاد الزاب كما في كل البلاد المفتوحة حقوقهم، لكــن التطبيقات البشرية كانت تختلف.

21-رغم أن العبيد كانوا جزءا من المجتمع الزابي إلا أن تطور حياة المسلمين فيها جعل حجم هذه الفئة يتضاعف باستمرار.

22-رغم احتفاظ سكان الزاب ببعض العادات الخاصة بهم، إلا أنهم اكتسبوا العديد منـــها على أيدي المسلمين.

23-تأثرت الحياة العلمية في بلاد الزاب بالأحداث السياسية والنزاعات المذهبية التي كانـــت تطبع المنطقة، فكانت منبتا لكثير من العائلات التي اشتهرت بأبنائها العلماء، والذين ذاع صيتهم مشرقا ومغربا.

24-وقد أسهمت مجالس العلم وحلقات الدرس في تغذية روح حب العلم في العديد من أبناء المنطقة.

25- تفاعل سكان بلاد الزاب مع المسلمين بشكل كبير، بحيث أصـــبحوا يـــدافعون عـــن حقوقهم باسم الإسلام وفي ظله، ذلك أنهم ومع استقبلهم له واحتضنه إلا أنهم اختلفـــوا مع العرب في تطبيق شقه السياسي.

26-يبدو أن الحركية السياسية الكبيرة التي عرفتها المنطقة في هذه الفترة أخذت منها حقهـــا بحظ وافر، لكن في المقابل منحتها زخما وموروثا معرفيا لا يزال متأصلا فيها.

26-تعطي التركيبة الاجتماعية لبلاد الزاب انطباعا بالتناقض بين ثائر ومهادن وطالب للعلم وباحث عن المال، لكنها في الحقيقة بناء متكامل لمظهر صحي لمجتمع يعج بالحياة.

27-ويبقى الموضوع بحاجة إلى المزيد من البحث والتدقيق لملئ الثغرات ووصل الحلقات.

فهارس عامة

فهـــارس عامة

- فهرس الأعلام
- فهرس الأماكن
- فهرس القبائل والبلدان
- فهرس المذاهب والأديان
- فهرس المصادر والمراجع

فهرس الأعلام:

-أ-

-ص-

-ط-

-ف-

-ق-

فهرس البلدان :

-أ-

-ب-

فهرس القبائل

فهرس المذاهب و الأديان

-أ-

-ح-

-خ-

-س-

-ش-

-ص-

-ك-

-م-

-ن-

فهرس المصادر والمراجع

-القرآن الكريم

-المصادر:

1-ابن الأثير(عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم بن عبد الواحد الشيباني555-830هـ)، الكامل في التاريخ،دار صادر، (د ط)، بيروت، 1402هـ،1982م.

2- " اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، 1400 هـ - 1980

3-ابن الإخوة(ضياء الدين محمد بن أبي زيد القرشي)، معالم القربة في أحكام الحسبة، علق عليه ووضع حواشيه، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1421هـ، 2001م.

4-إدريس (عماد الدين القرشي)، الدولة الفاطمية بالمغرب من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار ، أعدها للنشر فرحات الدرشاوي، (د ط)، (د ب ط)، 1979م.

5-الإدريسي(محمد بن عبد العزيز الشريف ت 560هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، (د ط)، القاهرة، 1422هـ،2002م.

6-الأندلسي(يحيى بن عمر)، كتاب أحكام السوق، فصلة من صحيفة المعهد المصري، بقلم محمود علي مكي، الشركة التونسية، 1975م.

7-ابن بصال، كتاب الفلاحة، نشر وترجمة وتعليق خوسي ماريه مياس بييكروسا، محمد عزيمان،(د د ط)، (د ط)، تطوان، المغرب، 1955م.

8-البكري(أبو عبد الله ت 487هـ)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، (د ط)، بغداد، (د ت).

9- البلاذري(أبو الحسن ت 279هـ)، فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، (د ط)، بيروت، لبنان، 1398هـ، 1978م.

10-ابن تغري بردي(جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1413هـ،1992م.

11-ابن تيمية(تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ت661-728هـ)، الحسبة ومسؤوليات الحكومات الإسلامية، الطريق للنشر والتوزيع، (د ط)، الجزائر، 1990م.

12-جوذر(أبو علي منصور العزيزي الجوذري)، سيرة الأستاذ جوذر، تقديم وتعليق محمد كامل حسين، محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، (د ط)، مصر، (د ت).

13-ابن حماد(أبو عبد الله محمد ت 628هـ)، أخبار ملوك بني عبيد وسيرهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ط)، الجزائر، 1984م.

14-الحميدي(أبو محمد بن أبي نصر الأزدي الأندلسي ت488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1417هـ،1991م.

15-الحميري(محمد بن عبد المنعم ت 727هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، هيدلبرغ، مكتبة لبنان، الطبعة الثانية، بيروت، 1984م.

16-ابن حوقل(أبو القاسم النصيبي ت بعد 367هـ)، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، (د ط)، بيروت، لينان، (د ت).

17-ابن خرداذبة(أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت حوالي 272هـ)، المسالك والممالك، وضع مقدمته و هوامشه وفهارسه محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1408هـ، 1988م.

18-ابن خلدون(عبد الرحمن بن محمد ت 808هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1413هـ، 1992م.

19- " ، المقدمة، تصحيح وفهرسة أبو عبد الله السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الدينية، الطبعة الثانية، مكة المكرمة، 1417هـ،1996م.
20-ابن خلكان(شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ت 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، (د ط)، بيروت، (د ت).
21-الخشني(محمد بن الحارث بن أسد)، طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، (د ط)، بيروت، (د ت).
22-أبو داوود ، سنن أبي داوود، دراسة كمال يوسف الحوت ، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1409هـ، 1988م.
23-الدرجيني(أبو العباس أحمد ت في منتصف القرن 7هـ)، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، (د ت).
24-الرقيق القيرواني(أبو إسحاق بن إبراهيم القاسم ت بعد 417هـ)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي، الناشر رفيق السقطي، (د ط)، تونس، (د ت).
25-أبو زكرياء(يحى بن أبي بكر ت 471هـ)، سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1402هـ، 1982م.
26-الزهري(أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ت أواسط ق 6هـ)، كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صالح، المركز الإسلامي للطباعة، مكتبة الثقافة الدينية، (د ط)، مصر، (د ت).
27-ابن سعيد المغربي(أبو الحسن علي بن موسى)، كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، الجزائر، 1982م.
28-السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن ت 911هـ)، لب اللباب في تحرير الأنساب، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، أشرف أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1411هـ، 1991م.

29-شباب(أبو عمرو خليفة بن خياط الليثي العصفري ت 240هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، راجعه وضبطه ووثقه ووضع حواشيه وفهرسه مصطفى نجيب فواز، حكمت شلبي فواز، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى بيروت، لبنان، 1415هـ، 1995م.

30-ابن الصغير المالكي(كان حيا أواخرالقرن 3هـ)، تارخ الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق محمد ناصر، إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، (د ط)، بيروت، لبنان، 1406هـ، 1986م.

31-الضبي(أحمد بن يحيى بن عميرة ت 599هـ)، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأأولى، بيروت، لبنان، 1417هـ، 1997م.

32-أبو العرب(محمد بن أحمد بن تميم القيرواني ت 333هـ)، طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، (د ط)، بيروت، لبنان، (د ت).

33-ابن عذارى المراكشي(توفي أواخر القرن 7هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق وتعليق ج س كولان، إ ليفي بروفنسال، دار الثقافة، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1400هـ، 1980م.

34-ابن عبد الحكم(ت 257هـ)، فتوح مصر والمغرب، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، (د ط)، القاهرة، 1415هـ، 1995م.

35-ابن الفرضي(أبو الوليد عبد الله بن نصير الأزدي ت 403هـ)، تارخ علماء الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1417هـ، 1997م.

36-القاضي(النعمان أبو حنيفة بن أبي عبد الله بن حيون ت 363هـ)، رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، الطبعة الأولى، بيروت، 1970م.

37- " ، المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي، إبراهيم شبوح، محمد اليعلاوي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، (د ط)، تونس، 1978م.

38-القاضي(عياض بن موسى بن عياض السبتي ت 544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق عبد القادر الصحراوي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،الطبعة الثانية، المملكة المغربية، 1403هـ، 1983م.
39- " ، تراجم أغلبية، مستخرج من المدارك، تحقيق، محمد طالبي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، (د ط)، تونس، 1968م.
40-لسان الدين الخطيب(أبو عبد الله محمد بن سعيد الغرناطي ت 776هـ)، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1424هـ، 2003م.
41-ليون الإفريقي(الحسن بن محمد الوزاني الفاسي عاش في القرن 10هـ)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، 1983م.
42-المالكي(أبو بكر عبد الله بن محمد ت بعد 453هـ)، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وأوصافهم، تحقيق بشير البكوش، راجعه محمد لعروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1414هـ، 1994م.
43-مجهول(توفي في القرن 6هـ)، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، (د ط)، الإسكندرية، 1958م.
44-المقدسي(شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت 378هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1411هـ، 1991م.
45-المقريزي(تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد القادر العبيدي ت 845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1418هـ، 1998م.
46-المنذري(زكي الدين عبد العظيم ت 581- 656هـ)، مختصر صحيح مسلم، دار بن حزم، بيروت، لبنان، 1424هـ، 2003م.

النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب 677- 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق حسين نصار، مراجعة عبد العزيز الأهواني، المكتبة العربية، (د ط)، القاهرة، 1403هـ، 1983م.

47-أبو الهدى(محمد اليعقوبي الحسيني)، أحكام التسعير في الفقه الإسلامي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، 1421هـ، 2000م.

48-الواقدي(أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد ت 207هـ)، فتوح الشام، ضبط وتصحيح عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1417هـ، 1997م.

المراجع العربية

1-الباز العريني (السيد)، الدولة البيزنطية 323-1081م، دار النهضة، (د ط)، بيروت، 1982.

2- بحاز (إبراهيم)،الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية (160-296هـ/777-909م)، مطبعة لافوميك، الطبعة الأولى، الجزائر،1985م

3-الجنحاني (الحبيب)، المغرب الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية (3- 4 هـ)/(9-10 م) الدار التونسية للنشر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس، الجزائر،1398 هـ - 1978 م.

4- جوزيف (نسيم يوسف)، تاريخ الدولة البيزنطية(284-1453م)، دار المعرفة الجامعية، (د ط)، الإسكندرية، 1999.

5-حركات (إبراهيم)، النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط إفريقيا الشرق، الدار البيضاء،(د ط)، 1996م.

6-الحريري (محمد عيسى) ، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي وحضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس(160-296هـ)، دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، الكويت، 1408هـ، 1987م.

7-حسين (ممدوح)، إفريقية في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي قراءة جديدة تكشف افتراءات الفاطميين، دار عمار، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، 1413هـ-1997م.

8-حسونة (محمد أحمد) ، أثر العوامل الجغرافية في الفتوح الإسلامية، مكتبة نهضة مصر، (د ط)، الفجالة، 1960.

9-خطاب (محمد شيت) ، عقبة بن نافع الفهري،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، بيروت، لبنان1397هـ،1977م.

10- " ، قادة الفتح العربي، دار الفكر، ط7، (د م ط)، 1404هـ، 1984م.

11- دبوز (محمد علي) ، تاريخ المغرب الكبير، دار إحياء الكتب العربية، (د د ط)، الطبعة الأولى، (د ب ط)، 1382هـ، 1963م.

12- أبو رخية(ماجد)، حكم التسعير في الإسلام، مكتبة الأقصى، ط1، عمان، الأردن، 1403هـ، 1983م.

13-سنوسي (يوسف إبراهيم) ، زناته و الخلافة الفاطمية ، مكتبة سعيد رأفت ، (د ط)، (د ب ط)، 1986م.

14-شنيتي (محمد البشير) ، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ديوان المطبوعات الجامعية، (د ط)، (د ب ط)، (د س ط).

15-الشيخ (محمد مرسي) ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، (د ط)، الإسكندرية، 1996م.

16-طقوش (محمد سهيل) ، تاريخ الفاطميين في شمال إفريقية و مصر و بلاد الشام ، 297-567هـ/910-1171م دار النفائس ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان ، 1422هـ ، 2001م.

17- عبد الحميد (سعد زغلول) ، تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، (د ط)، الإسكندرية، 1995م.

18- " ، مذكرات البيدق، نشر، بروفنسال ليفي .

19-عبد الرازق (محمود إسماعيل) ، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 1406هـ -1985م.

20-عبد العزيز (سالم السيد) ، المغرب الكبير العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، دار النهضة، (د ط)، بيروت، 1981.

21-عبد الكريم أحمد (نريمان) ، مجتمع إفريقية في عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، (د ب ط)،2000م.

22-عبد المطلب (فوزي) ، الخلافة والخوارج في المغرب العربي الصراع بينهما حتى قيام الأغالبة، (د د ط)، الطبعة الأولى (د ب ط)، 1393هـ، 1973م.

23-بن عميرة (محمد)، دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د ط)، الجزائر، 1984.

24-عبيدات (محمد إبراهيم) ، أساسيات التسعير في التسويق المعاصر(مدخل سلوكي)، دار المسيرة، الطبعة الأولى، عمان، الأردن، 1425هـ، 2004م.

25-فهمي سامح (عبد الرحمن) ، المكاييل في صدر الإسلام، الفيصلية، (د ط)،مكة المكرمة، (د ت).

26-فيصل (شكري)، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، بيروت، لبنان، 1982م.

27-بن قربة (صالح) ، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب ، (د ط)، الجزائر، 1986م.

28-اللميلم (عبد العزيز) ، حسان بن النعمان الغساني ودوره في فتح بلاد المغرب، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، 1405هـ، 1985م .

29-لقبال (موسى) ، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي نشأتها و تطورها ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 1971م.

30- " ، دور كتامة في تاريخ الخلاقة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري(11م)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، (د ط)، الجزائر، 1979م.

31- " ، تاريخ المغرب الإسلامي، دار هومة،(د ط)، الجزائر، 2002م.

32-مؤنس (حسين) ، فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية(711-756م)، دار السعودية للنشر والتوزيع،الطبعة الثانية، جدة، 1405هـ، 1985م.

33- " ، فتح العرب للمغرب، دار المصري للطباعة، (د ط)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د س ط).

34-مجاني بوبة، أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2003م.

35-المجذوب (عبد العزيز) ، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، تقديم علي الشابي، الدار التونسية للنشر، (د ط)، 1395 هـ-1975م.

36-مرمول (محمد الصالح) ، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية، (د ط)،الجزائر، 1983م.

37-محمد كرو (أبو القاسم)، عصر القيروان، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، دمشق، 1989م.

38-مختار (جمال)، حضارات إفريقيا القديمة، اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام، اليونيسكو، مطابع كانالي، جون أفريك،(د ط)، إيطاليا، باريس، 1985.

39-مزهودي (مسعود) ، الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب(296-442هـ)(909-1058م)، المطبعة العربية، جمعية التراث، غرداية،(د ط)، 1417هـ، 1996م.

40-بن منصور (عبد الوهاب) ، قبائل المغرب، المطبعة الملكية، (د ط)، الرباط، 1388هـ، 1968م.

41-الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، (د ط)، الدار البيضاء، 1418هـ، 1997م.

42- يوسف (جودت عبد الكريم) ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية،(د ط)، الجزائر،(د ت)

المراجع المعربة

1-بل (ألفرد) ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، لبنان، 1987م.

2-جوليان (شارل أندريه) ، تاريخ إفريقيا الشمالية، تر محمد البشير سلامة، الدار التونسية للنشر، (د ط)، 1969، (د م ط).

3-فالتر(هنتس)، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ت، كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ط2، ص 74.

4-هوبكنز (ج.ف.ب) ، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تر، أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، ط2، الدار البيضاء، 1420هـ، 1999م

الرسائل الجامعية

1-بن خيرة (نجيب) ، الحياة العلمية في الدويلات الإسلامية بالمشرق (خراسان وبلاد ما وراء النهر) بين القرنين الثالث والخامس الهجري من 205 هـ - 432 هـ / 820 م – 1040م، دكتوراه جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، فسنطينة، 1424هـ - 1425هـ / 2003م – 2004.

2-رحماني (موسى) ، الأوراس في العصر الوسيط من الفتح إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (27-362 هـ/637-972م) ، دراسة اجتماعية ، ماجستير ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 1427-1428 هـ /2007-2008م .

3-سامعي (إسماعيل) ، القاضي النعمان حياته و جهوده في نشر الدعوة الإسماعيلية وتطورها في الدور المغربي 313-363هـ/925-973م ، دكتوراه ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، الجزائر، 2002-203م.

4-عابد (يوسف) ، العلاقات بين الدولتين الحفصية والمملوكية648-649هـ/1250-1296م، ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية،1415-1416هـ /1994-1995م.

المقالات

1-الجنحاني (الحبيب) ، العلاقات السياسية والاقتصادية بين إفريقيا والمغرب الأوسط فيما بين القرنين الثاني و الخامس للهجرة الثامن و الحادي عشر للميلاد، الأصالة، باتنة، الجزائر، 1398هـ-1978م.

2-حاجيات (عبد الحميد) ، التطور المذهبي بناحية أوراس في العصر الوسيط، الأصالة، 1398هـ-1979م، العدد 60-61.

3-حركات (إبراهيم) ، ثورة كسيلة والكاهنة ومصير الإسلام بالمغرب الكبير، الأصالة، ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر، وزارة الشؤون الدينية، باتنة، 1987.

4-سيد أحمد (على عبد السلام) ، ورقات تاريخية عن حياة البربر الدينية والخلقية في المغرب العربي، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج30-31، مطبعة الجبلاوي، شبرا، 1405هـ، 1984م

5-غانم (محمد الصغير) ، نظام الزراعة والري في منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية، التراث، شركة الشهاب، الجزائر، العدد4، 1989م.

6-لقبال (موسى) ، البتر والبرانس والمظهر الاجتماعي لسكان بلاد المغرب قبل الإسلام، الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، العدد24، 1975.

7- " ، طبنة مدينة الزاب و الأوراس في العصور الوسطى، الأصالة، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، العدد60-61، 1978م.

8- " ، الحلف بين أهل السنة و النكارية، في القرن 4 هـ/10م ، وأثره في تطور أوضاع مدن إفريقية و الزاب و الحضنة و الأوراس ، مجلة الأصالة ، باتنة ، العدد 60-61.

دوائر المعارف والقواميس والمعاجم

1-أبادي (الفيروز)، القاموس المحيط، دار العلم للجميع،(د ط)، بيروت، لبنان، (د ت).

2-البستاني (بطرس)، دائرة المعارف قاموس عام لكل فن ومطلب، دار المعرفة، (د، ط)، بيروت، لبنان، (دت).

3-أبو الحسن (أحمد فارس)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، 1421هـ، 2000م.

4-الشناوي (أحمد)، (إبراهيم) خورشيد ، عبد الحميد (يونس)، دائرة المعارف الإسلامية، مراجعة محمد مهدي علام، دار المعرفة، (د ط)، بيروت، لبنان، (د ت).

5-ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري) ت 711هـ، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، دار صادر، (د ط)، بيروت، لبنان، (د ت)

المراجع الأجنبية :

1-POULLES EVIFIKATEUR, RUINES BCHILGA, (ANCIENNE ZABI), Revue Africaine, Journal des travaux de la Société Historique Algérienne, N: 05, office des publication Universitaires, Alger, 1861.

فهرس الموضوعات

فهـــرس الموضوعات